سنة الله في إهلاك الأمم

وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال

قراءة في تفسير المنار

تأليف

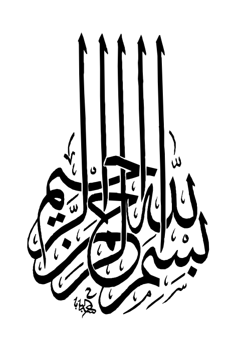
أ. د رمضان خميس زكي الغريب

دراسات في السنن الإلهية

سنة الله في إهلاك الأمم

وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال
قراءة في تفسير المنار

د. رمضان خميس زكي الغريب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد في قسم أصول الدين
كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر، القاهرة



الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

رقم الإيداع: / ٢٠١٤



المقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد وآله وأصحابه والتابعين، اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقواتنا ونلوذ بحولك وطولك وقوتك فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين، اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا فيك لك خالصة إنك على كل شيء قدير اللهم إنا نسألك إيمانا لا يرتد ونعيما لاينفد وقرة عين لا تنقطع ونسألك مرافقة النبيين في الجنة، وبعد...، فإن قضية السنن عامة وقضية سنة الله في إهلاك الأمم خاصة من القضايا التي لم تأخذ حظها من الفكر الإسلامي في القديم والحديث بالقدر الذي يتناسب مع أهميتها وخطورتها، ومن العلماء القلائل الذين عنوا بهذه القضية تنظيرا وتطبيقا، ودعوة، وبلاغا، وتوجيها وإرشادا، صاحب تفسير المنار: الشيخ السيد محمد رشيد رضا، وأرى أن يسير الكلام في هذه الدراسة على النحو التالي:

أولاً- أهمية البحث ودواعي الكتابة فيه:

لهذه الدراسة أهمية خاصة تتلخص في عدة أمور:

❖ الحاجة الماسة للأمة عامة إلى إدراك السنة الضابطة في إهلاك الأمم كي تحذرها وتتقيها، فالسعيد من وعظ بغيره، والشقي من وعظ بنفسه والتاريخ يعيد نفسه.

❖ الواقع المعيش الذي تحياه الأمة، من جراء الترف والرفاهية التي أورثتهم الكثير من أمراض الأمم السابقة. والوقوف على أسباب البقاء والفناء يعين على حذر اللاحقين من الوقوع في مهاوي السابقين.

❖ تبصير القيادة الفكرية الرائدة للأمة المسلمة التي تريد أن تتقي مهاوي الردى ومواطن الزلل بما حل للسابقين جراء عدم اعتبارهم بعظات الله وعبره بالسنن الماضية التي لا تتخلف في إهلاك الأمم وإبقائها.

❖ الرغبة الملحة في المشاركة في تقديم صورة من صور الوقاية القرآنية التي لا يضل من اتبع هداها ولا يشقى من أفاد منها واعتبر بعبرها وسناها.

❖ التبشير بأسباب البقاء التي عصمت أمما من الهوى، وحفظت أجيالا من الردى؛ كي تمضي الأمة على منوالها، فلا يصلح

أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

❖ إبراز قيمة رائد من رواد الإصلاح والتجديد في دعوته إلى السنن وفقهها وإحسان التعامل معها وهو صاحب المنار الذي كان هو وتفسيره (منارا) بحق للأمة في وهدتها ومرشدا لها في غياهبها وظلماتها.

❖ الدعوة الملحة للأمة عامة والنخب المثقفة فيها خاصة وللقيادة الفكرية فيها على وجه أخص- ممثلة في علمائها وباحثيها أن ينظروا بعين الاعتبار إلى ضرورة إحياء فقه السنن والكتابة فيه؛ فهو الضابط الذي لا يتخلف حسب سنة الله في الحياة والأحياء.

❖ أقول هذا والعالم الإسلامي اليوم يعاني ما يعاني مما لا يخفى ضرره وشرره على القريب والبعيد وعلى الرغم من كل هذا ستبقى مهمة الأمة الإسلامية التي تؤديها بجدارة يوم أن تنفك عن أسباب السقوط والهلاك، وتأخذ بمنهاج الأولين في مناهج الحياة والتعامل مع الأحياء، (لسوف تبقى هذه الأمة، ولسوف تؤدي دورها، لسوف تقوم من عثرتها .. هكذا يقول لنا معلمنا العظيم .. "تاريخنا" ذو الأربعمائة وألف سنة – أطال الله عمره!!

ولقد كبونا كثيرا .. ثم قمنا

ولقد حاربنا العالم كله ذات يوم .. ونجونا .. وانتصرنا .. فقط

ثمة شرط واحد: أن نعرف من أين نبدأ، وإلى أية غاية نريد!!، ودائما يعلمنا تاريخنا أن آخر أمتنا لن يصلح إلا بما صلح به أولها)[1].

ومعالجتنا لهذه الدراسة الموضوعية في التفسير في ضوء المنار ليس سرفاً علمياً نتباهى به، ولا ترفا ثقافيا نقف عنده، بل رغبة صادقة في تقديم الصورة التي تقرب لنا سبل البقاء، وتحمينا وأمتنا من الفناء، الحسي والمعنوي على حد سواء، (فتاريخنا الإسلامي العظيم كتاب كامل من التكاملية التاريخية، يضم بين صفحاته كل صور التقدم والتأخر .

وهو معلم عظيم .. اشتملت تجاربه على نوعيات من كل تجارب التاريخ البشري، وليس ذلك لأن القرآن العظيم قد حكى على نحو تركيبي كل صور التقلب والحركة والهبوط والارتقاء التي مر بها الموكب البشري، والتي تغني التطور التاريخي الإسلامي وتكفل له الاندفاعة العاقلة .. ليس مرد الأمر إلى ذلك وحسب .. بل لأن كتاب التاريخ الإسلامي نفسه قد شاء الله له أن يكون من التكاملية والحبكة والتنوع بحيث يصلح كمرجع تال للقرآن والسنة، يرجع المسلمون إليه ويتعلمون منه، ويتلقون تلقي التلميذ من الأستاذ ..

١- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، من المقدمة، د. عبد الحليم عويس، من المقدمة ص ٦.

إننا لا ندعو إلى رفض تأمل الموكب البشري المتحرك الذي يتحرك إلى جانبنا ومن حولنا .. أبدا .. فكل ما هنالك أننا لا بد أن ندرس أنفسنا قبل أن ندرس الآخرين)[1].

ثانيًا– مشكلة البحث:

التاريخ عبر، والأيام دول، واللبيب من يضع قدمه مكان قدم من نجا وفاز، فيفوز فوزه، ويحذو حذوه، ويتجنب السير خلف من هلك، فيزل كما زل، ويهلك كما هلك.

من هنا أردت أن أعالج الحديث عن سنة الله في إهلاك الأمم، وأنقب عن جهود صاحب المنار في هذا الجانب الذي تميز به و لم يأخذ حظه من الدراسة اللائقة، والعناية المستحقة، فكانت هذه الدراسة.

ثالثًا– أسئلة البحث:

السؤال الأساس الذي تدور حوله هذه الدراسة هو: ما سنة الله في إهلاك الأمم كما عالجها صاحب المنار، وما موقف المسلمين منها؟؟.

ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة فرعية أخرى هي:

- ✓ ما مفهوم كلمة: سنة، إهلاك، أمم، القصص، أسباب؟.

١– دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، صـــ ٣٣.

- ✓ ما موقف القرآن من: ذكر مصارع الغابرين، وكيف دعا إلى التفكر فيها، وما منهاج القصص القرآني في إبراز سنة الله في إهلاك الأمم؟.
- ✓ ما جهود المنار في بيان سنة الله في إهلاك الأمم؟.
- ✓ ما موقف المسلمين من سنة الله في إهلاك الأمم؟.
- ✓ ما أسباب هلاك الأمم؟.
- ✓ ما أسباب بقاء الأمم؟.

رابعًا- أهداف الدراسة:

من خلال الإجابة على هذه الأسئلة يمكن تحقيق الهدف العام وهو معرفة سنة الله في إهلاك الأمم وبيان جهود المنار في بيانها. ومعرفة الأهداف الفرعية وهي ما سبق بيانه.

خامسًا- حدود الدراسة:

اقتصرت الدراسة على حصر وبيان سنة الله في إهلاك الأمم ومهمة المنار في الحديث عنها – حسب الطاقة من خلال الآيات التي تتناول أسباب بقاء الأمم وفنائها، ومعالجة صاحب المنار لها، وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال.

سادسًا- منهاج البحث وأداته:

استخدم الباحث المنهج الوصفي الاستنباطي، والتحليلي، وكانت

أداته جمع الآيات ذات الصلة بالموضوع، وتحليلها، واستنباط الأسباب والشروط والأهداف المتعلقة بسنة الله في إهلاك الأمم، اعتمادا على ما كتبه صاحب المنار خاصة وعلماء التفسير واللغة عامة.

سابعًا- الدراسات السابقة:

الكتابة في أسباب البقاء والفناء، والحديث عن الأمم الماضية وما حل بها جراء كفرانها ونكودها عني به المفسرون السابقون، لكن في كتابات منثورة، لم تأخذ قدرها اللائق، وعنايتها المستحقة، ولم أر -على حد علمي- كتابة مفردة عن سنة البقاء والفناء، أو سنة الله في إهلاك الأمم، عدا مقدمة ابن خلدون التي تعتبر سبقًا في ميدانه وإحرازًا في بابه إلا أنه كما لم يسبق ابن خلدون بمثله لم يسر على نهجه مثله، وقد تناول ابن خلدون في مقدمته سنن الاجتماع العمراني والبقاء والفناء فأفدت منه أيما إفادة، سواء كان ذلك في منهجية العرض أو العمق في التناول.

أما المنار وصاحبه فهو غاية القصد وبيت القصيد، فقد عني بالسنن عامة وسنة الله في إهلاك الأمم خاصة، وهو محور حديثنا وبيت قصيدنا، ولم يحم حوله أحد في هذه الزاوية.

وهناك بعض الكتابات التي عرضت لشيء أفدت منه في هذا الصدد ومن ذلك:

١- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، وهو كتاب يعني بذكر أسباب السقوط التي تقيد به الدكتور الفاضل، سواء في الشرق الإسلامي أم في الغرب الإسلامي، وهي دراسة تاريخية حسب تخصصه وتناوله ولم يعرض موضوعه لسنة الإهلاك عامة ولا لدى مدرسة المنار من باب أولى، وهو كتاب باك على واقعنا ومنهض للنظر في تجارب السابقين، وقد أفدت منه إفادة كبيره، نفع الله به وبمؤلفه.

٢- أسباب هلاك الأمم السالفة، كما ورد في القرآن الكريم، لسعيد محمد بابا سيلا، وهي رسالة ماجستير قدمت إلى الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، وهي من مطبوعات سلسلة الحكمة، بريطانيا، ط. أولى، ١٤٢٠هـ،٢٠٠٠م، وقد أفدت من هذه الدراسة في الحديث عن بعض أسباب الهلاك، وإن كان لم يعرض لأسباب الهلاك باعتبارها سنة من سنن الله تعالى الماضية، وقد أفدت من في غير ما موضع من أسباب البقاء والفناء، نفع الله به.

٣- أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، لعبد الحميد محمود طهماز، ط: دار القلم، والدار الشامية، ط أولى١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، والكتاب تناول بعد أربعة فصول

تقريبا من مجموع فصوله الثمانية الحديث عن الأقوام وأسباب هلاكهم.

٤- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، ط: مؤسسة الرسالة، ط الثالثة، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، والكتاب وإن لم يعرض لسنة الله تعالى في البقاء والفناء إلا أنني أفدت منه قديما وحديثا في منهجية عرضه وطريقة تناوله، وهو من أول من كتب في علم السنن بطريقة موضوعية تأصيلية.

٥- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، د. شريف الشيخ صالح الخطيب، ط: مكتبة الرشد، ط أولى ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، وهي رسالة دكتوراه، وتناولت مدخلا للسنن وتأصيلا لها ثم تناولت بعض السنن الربانية، لكنها لم تعرض لسنة البقاء والفناء، أو سنة الله في الإهلاك.

٦- الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، للدكتور علي محمد الصلابي، وهو كتاب تاريخي كما هو واضح، وقد جردته جردا طمعا في الوقوف على الأسباب التي تعين على تكوين فكرة عن السننية في الازدهار والانهيار لكن دن جدوي فهو على طريقة المؤلف الفاضل يعنى بالجمع وهو مميز فيه لكن

لم يقف عند الأسباب وقوفا يغني.

٧- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، للدكتور علي محمد الصلابي، وهي أيضا دراسة تقوم على الجمع التاريخي ولا تعرض لمفهوم السننية في هذه القضية.

٨- مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير، للباحث، وهو مدخل لعلم السنن، من مطبوعات مكتبة الشروق، قدم له الدكتور محمد عمارة، وهو تقعيدات عامة لعلم السنن من خلال رؤية السابقين من المفسرين والمفكرين من خلال القرآن العظيم.

ثامنًا- هيكل البحث:

المبحث الأول: مدخل تمهيدي: وفيه مطلبان:

أولاً: مصطلحات الدراسة: وفيه بيان معنى كل من: سنة – إهلاك – الأمم.

ثانيًا: القرآن وسنة الله في إهلاك الأمم، وفيه:

١- عناية القرآن بذكر مصارع الغابرين والعبرة منها.

٢- دعوة القرآن للنظر والتفكر لمعرفة سنن الله في الأمم.

٣- منهاج القصص القرآني في الأمم السابقة وعلاقته بإبراز سنة الله في إهلاك الأمم.

المبحث الثاني: موقف المسلمين من السنن الربانية.

المبحث الثالث: موقف المسلمين من سنة الله في إهلاك الأمم.
المبحث الرابع: جهود المنار في بيان سنة الله في إهلاك الأمم
المبحث الخامس: أسباب هلاك الأمم في نظر صاحب المنار.
المبحث السادس: أسباب بقاء الأمم في نظر صاحب المنار.
الخاتمة.
المصادر والمراجع.

* * *

المبحث الأول
مدخل تمهيدي

وفيه مطلبان:

أولاً: مصطلحات الدراسة

ثانياً: بعض المفاهيم ذات الصلة ومنها

أولاً: مصطلحات الدراسة، وفيها المفردات التالية:

١- سنة:

السنة في لسان العرب:

ترى كتب اللغة أن السنة تعني السيرة والطريقة، حسنة كانت أو سيئة، مقبولة كانت أو مرذولة[١] ويري ابن الأثير في كتابه: (النهاية في غريب الحديث والأثر) أن السنة تعني الطريقة والسيرة؛ ففي حديث المجوس (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)[٢]. أي خذوهم على طريقتهم، وأجروهم في قبول الجزية منهم مجراهم[٣].

والفيروز آبادي تلمس في بصائره الكلمة من نواحيها وطرقها

١- انظر: لسان العرب، مادة سنن.

٢- الموطأ، باب زية أهل الكتاب والمجوس، ٢٧٨/١، وانظر السنن الكبرى للبيهقي، باب الجزية ١٣٥/٨.

٣- انظر: (النهاية في غريب الحديث والأثر)، جـ ٢ صـ٤٠٩، بتصرف يسير.

طرقًا يقترب مما نريد الوصول إليه، فهو يذكر أن (الأصل فيها الطريقة والسيرة، ومنه قوله: «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[1] أي طرق طريقة حسنة... وسنة النبي ﷺ: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله قد تقال لطريق حكمته وطريق طاعته، وقوله تعالى: (**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**)[2] تنبيه (إلى) (أن فروع الشرائع وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود فيها لا يتغير ولا يتبدل... وسن الماء على وجهه: صبه صبًّا سهلا. وسن الحديدة حددها، وسنان ومسنون وسنين وسن سكينه بالمسن)[3].

والناظر في كلام الفيروز آبادي – رحمه الله– يجده يلمس معنى السنة من خلال اختيار النصوص وتتبع المادة، ولعل إشارته إلى أن (فروع الشريعة وإن اختلفت صورها فالغرض المقصود منها واحد لا يتغير ولا يتبدل)، وبنعته لكلمة سن من سنن الماء على وجهه، والسن بعض الرعي، كل هذا فيه ضبط دقيق من معنى اللفظة لسن بمعنى

١- البخاري، كتاب الجزية. وموطأ مالك، كتاب الزكاة، باب جزية أهل الكتاب والمجوس.

٢- فاطر: ٤٣.

٣- (بصائر ذوي التميز في لطائف الكتاب العزيز)، جـ٣ صـ٢٦٧، ٢٦٨، ط الثالثة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م، تحقيق محمد علي النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتصرف واختيار.

الرعي، ففيه نوع من السير على نفس المرعي وبذات الطريقة جيئة وذهابا، وهو نفس السيرة والطريقة. ووحدة الغرض المقصود من الشرائع وإن اختلفت صورها نوع أيضا من اتحاد الهدف من السنة التي تجري على اللاحقين كما جدت على السابقين.

والزمخشري في أساسه قد استوعب لفظ السنة وتقلباتها، فقال: (سن سنة حسنة ولزم سنن الطريق: قصده. وسنن الفرس وهو عدوه إقبالا وإدبارًا في نشاط وزعل، وسن إبله أحسن رعيها وصقلها كما يسن السيف. وسن الأمير رعيته: أحسن سياستها. وفرس مسنونة: متعهدة بحسن القيام عليها.. وجاء بالحديث على سننه على وجهه... واستنت الطرق: وضحت كل مذهب، ومنه قول القائل:

ولو شهدت مقامي بالحسام على ∴ حد المسناة حيث استنت الطرق

واستن به الهوى حيث أراد: ذهب به كل مذهب، ومنه قول القائل:

دعاني إلى ما يشتهي فأجبته ∴ فأصبح بي يستن حيث يريد[1]

والذي يتأمل نص الزمخشري في الأساس يجد أن المادة وتقلباتها تدل على بعض صفات السنن وخصائصها، من الوضوح والثبات

١- انظر: أساس البلاغة، جـ١ صـ٤٦٢ ـــ ٤٦٣، مادة س ن ن، باختصار وتصرف.

والشمول والعموم، والتعهد وحسن المتابعة والرعاية والتكرار، وهذا من الملامح العامة للسنة الربانية.

وأما الراغب في مفرداته فيقول: (سنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها. وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته.. وقوله تعالى: **(مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)**[1] قيل: متغير، وقوله تعالى: **(لَمْ يَتَسَنَّهْ)**[2] معناه: {لم يتغير}[3].

وكلام الراغب الأصفهاني رغم اشتراكه مع جزء ليس باليسير من كلام الفيروز آبادي والزمخشري، إلا أنه ألمح إلى صفة من صفات السنن وهي الثبات وعدم التغير كما سيتضح ذلك بعد.

وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- يرى: [أن السنة هي العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول، ولهذا أمر الله تعالى بالاعتبار][4]. وكذلك يرى الإمام الرازي في تفسيره أن السنة هي الطريقة المستقيمة والمثال المتبع[5].

وقد أبدع صاحب المنار عندما ربط المادة اللغوية لكلمة سنة

١- الحجر: ٢٨.

٢- البقرة: ٢٥٩.

٣- انظر: المفردات في غريب القرآن، صـ٣٥٦، ٣٥٧، مادة سن ن ن، باختبـار. ط الأنجلو، بدون تاريخ.

٤- انظر مجموع الفتاوى، جـ٣ / ٢٦٧، ٢٦٨.

٥- انظر مفاتيح الغيب، ١١/٩.

بالمعنى الدلالي لها عندما قال: «إنها الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع، من قولهم: سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المستقيمة بالماء المصبوب، فإنه لتوالي أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد»[1]. وأجاد وأفاد عندما ربط بين كلمة سنة التي نتحدث عنها و(السنة) المدونة؛ وهي فعل الرسول ﷺ وأقواله وتقريراته بقوله: (إن أهل الحق من سلف الأمة إنما سموا بأهل السنة والجماعة لأنهم ساروا في الاهتداء بالإسلام على السنة، وهي الطريقة العملية التي جرى عليها النبي في بيان القرآن كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2] وتلقاها عنه بالعمل جماعة من الصحابة... والأقوال وحدها لا يتبين بها المراد بيانا قطعيا لا يحتمل التأويل كالأفعال وإن كانت في غاية الجلاء والوضوح، ولذلك قال علي المرتضي -كرم الله تعالى وجهه- لابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- عندما أرسله لمجادلة الخوارج: احملهم على السنة. فإن مراده بالسنة ما ذكرناه من معناها الموافق للغة لا المعنى الاصطلاحي للمحدثين وسائر علماء

١- انظر تفسير المنار، جـ٤ صـ١١٥، بتصرف قليل.
٢- النحل: ٤٤.

الشرع الذي يشمل الأخبار القولية وغيرها][1].

والخلاصة: أن السنة (هي القانون الضابط المهيمن، والفعل النافذ الحاكم الذي يجري باطراد وثبات وعموم وشمول، مرتبًا على سلوك البشر)[2].

ورود لفظ السنة في القرآن الكريم:

ورد لفظ السنن في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة في عشر سور في إحدى عشرة آية، وهذه السور هي: آل عمران، والنساء، والأنفال، والحجر، والإسراء، والكهف، والأحزاب، وفاطر، والزمر، والفتح.

وقفات ولمحات:

ومن تتبع لفظ السنن في القرآن الكريم يمكن أن نرصد الآتي:

أولاً: أن لفظة سنة وردت في القرآن الكريم أحيانًا مفردة (سنة) وأحيانًا مجموعة (**ويهديكم سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**)[3].

ثانيًا: أنها أحيانًا تأتي مقطوعة (أي ليست مضافة وأحيانًا تأتي

١- انظر تفسير المنار، جـ٨ صـ٢٢٤، ٢٢٥، بتصرف واختصار.

٢- انظر مفهوم السنن الربانية، ط مكتبة الشروق الدولية بتقديم د. محمد عمارة، صـ ٢٥ للباحث.

٣- النساء: ٢٦.

مضافة وإضافتها تكون إلى الله تعالى: (**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلا**)[1]، أو مضافة لـــ (نا) العظمة (**وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلا**)، وأحيانًا تضاف إلى غير الله تعالى كقوله عز وجل: (**لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأوَّلِينَ**)[2]، (**فَهَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ سُنَّتَ الأوَّلِينَ**)[3]، (**يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم**)[4].

ثالثًا: أن اللفظة وردت في السور المكية كالحجر والإسراء والكهف وفاطر وغافر، والمدنية كآل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والفتح. وذا يدل على أهميتها وعناية القرآن الكريم بها حيث أسسها القرآن في المرحلة المكية، وأعاد الحديث عنها للتأكيد ولفت الانتباه وتأكيد أهميتها.

رابعًا: أن السياق الذي وردت فيه اللفظة غالبًا ما يدور حول الصراع بين الحق والباطل والكفر والإيمان، وصدود الكفر أمام نور الإيمان، وأساليب الباطل أمام ضوء الحق الناصع. وهذا يشي بأن لهذه الأشياء سنن ثابتة وقواعد ضابطة ونواميس لا تتبدل ولا تتغير، حتى

١- فاطر: ٤٣.
٢- الحجر: ١٣.
٣- فاطر: ٤٣.
٤- النساء: ٢٦

يؤسس المسلمون عليها حضارتهم ويهتموا بها ويعنوا بإحسان التعامل معها.

خامسًا: أنها قد ترد عقب بيان جزء من المنهاج التشريعي، كما ورد ذلك في سورة النساء عقب الحديث عن أمر الزواج ومتعلقاته.

سادسًا: أنها قد تأتي بمعنى العقوبة النافذة والقدر المحتوم.

سابعا: أنها قد تأتي ممدودة التاء وقد تأتي مقبوضتها، فإذا دلت على أثر ظاهر في الوجود فتأتي ممدودة، وساعتها تدل على الإهلاك والانتقام وإذا دلت على الشريعة والطريقة تأتي مقبوضة[1].

(وذلك أن هذه الأسماء لما لازمت الفعل صار لها اعتباران أحدهما من حيث هي أسماء وصفات وهذا تقبض منه التاء والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلا وأثرا ظاهرا في الوجود فهذا تمد فيه كما تمد في قالت وحقت وجهة الفعل والأمر ملكية ظاهرة وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة البرهان، ومنها السنة مقبوضة إلا في خمسة مواضع حيث تكون بمعنى الإهلاك والانتقام الذي في الوجود، أحدها: في الأنفال (**فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ**)، ويدل عليها أنها من

---

١ – وقد ظللت مشغولا بهذه المسألة: دلالة قبض التاء ومدها في لفظة (سنة) أربع سنوات أو تزيد حتى ظفرت بها عند الزركشي في النص الموجود فلله الحمد والمنة.

الانتقام قوله قبلها: ﴿**إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ**﴾[1]، وقوله بعدها: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ**﴾[2].

وفي فاطر: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾، ويدلك على أنها بمعنى الانتقام قوله تعالى قبلها ﴿**وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ وسياق ما بعدها وفي المؤمن: ﴿**فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ**﴾. أما إذا كانت السنة بمعنى الشريعة والطريقة فهي ملكوتية بمعنى الاسم تقبض تاؤها كما في الأحزاب: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ**﴾، أي: حكم الله وشرعه. وفي الإسراء: ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا**﴾[3].

إهلاك:

(هَلَكَ، كضَرَبَ ومَنَعَ وعَلِمَ، هُلْكاً، بالضم، وهَلاكاً وتُهْلُوكاً وهُلُوكاً، بضمهما، ومَهْلَكَةً وتَهْلَكَةً، مُثَلَّثَتي اللامات.... واسْتَهْلَكَ المالَ: أنْفَقَه وأنْفَدَهُ. وأهْلَكَهُ: باعَهُ. والمَهْلَكَةُ، ويُثَلَّثُ: المَفازَةُ. والهَلَكونُ، كحلَزونٍ، وتُكْسَرُ الهاءُ: الأرضُ الجَدْبَةُ وإن كانَ فيها

---

١ - الأنفال:٣٨.

٢ - الأنفال:٣٩.

٣ - البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، ج/٣٩، ٤٠،/، ط: دار المعرفة، بيروت لبنان، ط أولى ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

ماءٌ، ويقالُ: هذه أرضٌ هَلَكينٌ، وأرضٌ هَلَكونٌ: إذا لَمْ تُمْطَرْ مُنْذُ دَهْرٍ. والهَلَكُ، محرَّكةً: السِّنونَ الجَدْبَةُ، الواحدَةُ: بهاء، كالهَلَكات،... والتَّهْلُكَةُ: كلُّ ما عاقبَتُه إلى الهَلاك. ووادي تُهُلِّكَ، بضم التاء والهاء، وكسرِ اللامِ المُشَدَّدَةِ، مَمْنُوعَاً: الباطِلُ. والاهْتِلاكُ والانْهِلاكُ: رَمْيُكَ نَفْسَكَ في تَهْلُكَةٍ.....

وتَهالَكَ على الفِراشِ: تَساقَطَ، والمرأةُ في مِشْيَتِهَا: تَمايَلَتْ. والهالِكَةُ: النَّفْسُ الشَّرِهَةُ، وقد هَلَكَ يَهْلِكُ هَلاكاً. وفلانٌ هِلْكَةٌ، بالكسرِ، من الهِلَكِ، كعِنَبٍ: ساقِطَةٌ مِنَ السَّواقِطِ....)[1].

والمادة تأتي لازمة ومتعدية، ومن دلالاتها اللغوية كما رأينا التساقط والنفاد، ومصدرها التهلكة من نوادر المصادر.

وقد ورد لفظ (الهلاك) في القرآن الكريم (٦٨) مرة[2] وقد دلت اللفظة على عدد من المعاني منها: الموت، الفساد، فقد الشيء، العذاب، وهناك بعض الألفاظ التي دلت على الهلاك في القرآن الكريم ومنها: التدمير، والتتبير، التعذيب، الدمدمة، القصم، الانتقام، الأخذ، قطع الدابر، وجوب العذاب.

---

١ – القاموس المحيط – (ج ٣ / ص ٤٧)، – مختار الصحاح – (ج ١ / ص ٣٣٠).
٢ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مادة هلك، ٩٠٦، ٩٠٧. ط: دار الحديث، ط الثالثة،.

وقد ورد في القرآن الكريم أصناف الهلاك التي منيت به الأمم السابقة مثل: الغرق، الريح، الصيحة، الرجفة، الصاعقة، وقلب الديار، والحجارة، والظلة، والخسف، والمسخ.

الأمة:

(والأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا وجمعها أمم)[١].

ثانياً: بعض المفاهيم ذات الصلة ومنها:

١- دعوة القرآن للنظر والتفكر لمعرفة سنن الله في الأمم السابقة:

عني القرآن الكريم بالدعوة إلى النظر والتفكر في الكون المسطور والمنظور، فتجد آيات القرآن تتناول الحديث عن الذكر والفكر والنهى والحجر، واللب والعلم والفقه والنظر والسير والعبرة، والتذكر، حتى وردت الدعوة إلى أخذ العبرة في القرآن الكريم ما يزيد على (٣٣٢) مرة[٢].

ولا تجد حديثا عن لفت النظر والتفكر إلا ومعه دعوة إلى الإفادة

١- مفردات غريب القرآن للأصفهاني - (ج ١ / ص ٢٣).

٢- انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم المواد السابق ذكرها.

من علم السنن، بل لا تجد آية تتحدث عن السنن الكونية من الخلق والرزق والأرض والسماء، إلا ومعها آية تتحدث عن السنن الربانية في الإنسان والعمران.

٢- عناية القرآن بذكر مصارع الغابرين:

تكرر في القرآن الكريم الحديث عن مصارع الغابرين ممن عصوا ربهم، وكذبوا رسلهم،وتنكبوا الصراط المستقيم، فورد الحديث عن قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وعن فرعون وقومه، وأصحاب السبت، وأصحاب الرس، وقوم تبع، وأصحاب الفيل.

وقد قال الله – تعالى-: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٤٣)﴾[١]، وقال – تعالى- في بيان أن العلو والإفساد في الأرض مؤذن بهلاك أهلها: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**(٨٣)﴾[٢].

وقال- تعالى- في بيان ما حل بقوم لوط ودعوة السامعين ان يعتبروا بهم ويتعظوا بما حل بساحهم: ﴿**وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**

١- القصص: ٣٨.
٢- القصص:٨٣:

(١٣٣) **إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ** (١٣٤) **إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ** (١٣٥) **ثُمَّ دَمَّرْنَا الآَخَرِينَ** (١٣٦) **وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ** (١٣٧) **وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (١٣٨))[١].

وقال – تعالى– بعد الحديث عن قوم لوط أيضا: (**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ** (٧٤) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** (٧٥) **وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ** (٧٦) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ** (٧٧))[٢].

وقال – تعالى– بعد أن ذكر هلاك فرعون وقومه داعيا من يعي ويسمع أن يعتبر ويتقي موردهم ويعتصم بالإيمان الذي يحول بينهم وبين الهلاك ومبينا الحجاب الذي حال بينهم وبين الاتعاظ والاعتبار والإيمان: (**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ** (١٠٠) **قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ** (١٠١))[٣].

وقال –تعالى– في دعوة المنكرين المكذبين إلى السير والنظر: (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ**

١– الصافات: ١٣٣–١٣٨.

٢– الحجر: ٧٤–٧٧.

٣– هود: ١٠٠، ١٠١.

يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (١٠٩))[1].

وقال -تعالى-: (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣))[2].

وقال تعالى بعد ذكر قوم فرعون وعذابهم: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ

١- يوسف: ١٠٩.

٢- الأعراف: ١٠٠-١٠٣

يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧))[1].

وقال –تعالى-: (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** (١٠٢) **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآَخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ** (١٠٣))[2]، والناظر في الآيات السابقة يرى مدى دعوة القرآن الكريم للسير والنظر في مصارع الغابرين ومهاوى المكذبين المعاندين وبيان القرآن الكريم لأسباب هذا الهلاك.

٣- منهاج القصص القرآني وعلاقته بإبراز سنة الله في إهلاك الأمم:

الناظر في القصص القرآني يجده يعنى بصفة خاصة ببيان سنة الله الماضية في الخلق التي لا تتخلف ولا تتحول، فنجد في نهاية كل قصة ذكر العبرة وموطن العظة، ويركز على بيان السنة التي لا تتخلف، فكما مضت على السابقين تمضي على اللاحقين، تجد ذلك في نهاية قصة قارون في تعقيب الله تعالى على القصة بكاملها إذ يقول سبحانه: (**تِلْكَ الدَّارُ الآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي**

١- الأعراف: ١٠٦، ١٠٧.

٢- هود: ١٠٢، ١٠٣.

الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣))[١]، وفي نهاية قصة يوسف يقول تعالى: (**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)[٢].

وهكذا إذا تتبعنا القصص القرآني وجدنا كل قصة منه تنتهي بسنة من سنن الله تعالى التي لا تتخلف ولا تتأجل، يقول صاحب المنار وهو يتناول سورة الفاتحة: (ثَلاثَةُ أَرْبَاعِ الْقُرْآنِ تَقْرِيبًا قَصَصٌ. وَتَوْجِيهٌ لِلأَنْظَارِ إِلَى الاعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الأُمَمِ، فِي كُفْرِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، وَشَقَاوَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَلا شَيْءَ يَهْدِي الإِنْسَانَ كَالْمَثُلاتِ وَالْوَقَائِعِ. فَإِذَا امْتَثَلْنَا الأَمْرَ وَالإِرْشَادَ، وَنَظَرْنَا فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَأَسْبَابِ عِلْمِهِمْ وَجَهْلِهِمْ، وَقُوَّتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، وَعِزِّهِمْ وَذُلِّهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْرِضُ لِلأُمَمِ – كَانَ لِهَذَا النَّظَرِ أَثَرٌ فِي نُفُوسِنَا يَحْمِلُنَا عَلَى حُسْنِ الأُسْوَةِ وَالاقْتِدَاءِ بِأَخْبَارِ تِلْكَ الأُمَمِ فِيمَا كَانَ سَبَبَ السَّعَادَةِ وَالتَّمَكُّنِ فِي الأَرْضِ، وَاجْتِنَابِ مَا كَانَ سَبَبَ الشَّقَاوَةِ أَوِ الْهَلاكِ وَالدَّمَارِ. وَمِنْ هُنَا يَنْجَلِي لِلْعَاقِلِ شَأْنُ عِلْمِ التَّارِيخِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالثَّمَرَاتِ، وَتَأْخُذُهُ الدَّهْشَةُ وَالْحَيْرَةُ إِذَا سَمِعَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ رِجَالِ

١- القصص: ٨٣.

٢- يوسف: ١١١.

الدِّينِ مِنْ أُمَّةٍ هَذَا كِتَابُهَا يُعَادُونَ التَّارِيخَ بِاسْمِ الدِّينِ وَيَرْغَبُونَ عَنْهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ لا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَلا فَائِدَةَ لَهُ. وَكَيْفَ لا يُدْهَشُ وَيَحَارُ وَالْقُرْآنُ يُنَادِي بِأَنَّ مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الأُمَمِ مِنْ أَهَمِّ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ هَذَا الدِّينُ؟ (**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ**) (الرعد: ٦))[1].

والناظر في القصص القرآني يجد هذا الترابط البديع بين عرض القصة بأسلوب رائق فائق وإبراز سنن الله من خلالها.

من هنا لا يعنى القصص القرآني بالتاريخ ولا تحديد الزمان والمكان للحدث الذي يتناوله، إلا بقدر ما يخدم الهدف الذي يريده، والغية التي يسعى إليها، (وَلَيْسَ الْقُرْآنُ تَارِيخًا وَلا قَصَصًا وَإِنَّمَا هُوَ هِدَايَةٌ وَمَوْعِظَةٌ، فَلا يَذْكُرُ قِصَّةً لِبَيَانِ تَارِيخِ حُدُوثِهَا، وَلا لأَجْلِ التَّفَكُّهِ بِهَا أَوِ الإِحَاطَةِ بِتَفْصِيلِهَا، وَإِنَّمَا يَذْكُرُ مَا يَذْكُرُهُ لأَجْلِ الْعِبْرَةِ كَمَا قَالَ: (**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ**) (يوسف: ١١١) وَبَيَانُ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ كَمَا قَالَ: (**قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) (آل عمران: ١٣٧) وَقَالَ: (**سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**) (غافر: ٨٥) وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

١- المنار: ٥٦/١.

وَالْحَوَادِثُ الْمُتَقَدِّمَةُ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ، وَاللهُ تَعَالَى يَذْكُرُ مِنْ هَذَا وَذَاكَ مَا شَاءَ أَنْ يَذْكُرَ لأَجْلِ الْعِبْرَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، فَيَكْتَفِي مِنَ الْقِصَّةِ بِمَوْضِعِ الْعِبْرَةِ وَمَحَلِّ الْفَائِدَةِ، وَلا يَأْتِي بِهَا مُفَصَّلَةً بِجُزْئِيَّاتِهَا الَّتِي لا تَزِيدُ فِي الْعِبْرَةِ بَلْ رُبَّمَا تُشْغَلُ عَنْهَا، فَلا غَرْوَ أَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ الَّتِي يَعِظُنَا اللهُ بِهَا وَيُعَلِّمُنَا سُنَنَهُ مَا لا يَعْرِفُهُ النَّاسُ؛ لأَنَّهُ لَمْ يُرْوَ وَلَمْ يُدَوَّنْ بِالْكِتَابِ. وَقَد اهْتَدَى بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ الرَّاقِينَ فِي هَذِهِ الأَزْمِنَةِ إِلَى الاقْتِدَاءِ بِهَذَا، فَصَارَ أَهْلُ الْمَنــزِلَةِ الْعَالِيَةِ مِنْهُمْ يَذْكُرُونَ مِنْ وَقَائِعِ التَّارِيخِ مَا يَسْتَنْبِطُونَ مِنْهُ الأَحْكَامَ الاجْتِمَاعِيَّةَ وَهُوَ الأُمُورُ الْكُلِّيَّةُ، وَلا يَحْفِلُونَ بِالْجُزْئِيَّاتِ لِمَا يَقَعُ فِيهَا مِنَ الْخِلافِ الَّذِي يَذْهَبُ بِالثِّقَةِ، وَلِمَا فِي قِرَاءَتِهَا مِنَ الإِسْرَافِ فِي الزَّمَنِ وَالإِضَاعَةِ لِلْعُمُرِ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ تُوَازِيهِ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُمْكِنُ إِيدَاعُ مَا عُرِفَ مِنْ تَارِيخِ الْعَالَمِ فِي مُجَلَّدٍ وَاحِدٍ يُوثَقُ بِهِ وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ، فَلا يَكُونُ عُرْضَةً لِلتَّكْذِيبِ وَالطَّعْنِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي الْمُصَنَّفَاتِ الَّتِي تَسْتَقْصِي الْوَقَائِعَ الْجُزْئِيَّةَ مُفَصَّلَةً تَفْصِيلاً.

إِنَّ مُحَاوَلَةَ جَعْلِ قَصَصِ الْقُرْآنِ كَكُتُبِ التَّارِيخِ بِإِدْخَالِ مَا يَرْوُونَ فِيهَا عَلَى أَنَّهُ بَيَانٌ لَهَا هِيَ مُخَالَفَةٌ لِسُنَّتِهِ، وَصَرْفٌ لِلْقُلُوبِ عَنْ مَوْعِظَتِهِ، وَإِضَاعَةٌ لِمَقْصِدِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ نَفْهَمَ مَا فِيهِ، وَنُعْمِلَ أَفْكَارَنَا فِي اسْتِخْرَاجِ الْعِبَرِ مِنْهُ، وَنَــزِعِ نُفُوسَنَا عَمَّا ذَمَّهُ

وَقَبَّحَهُ، وَنَحْمِلَهَا عَلَى التَّحَلِّي بِمَا اسْتَحْسَنَهُ وَمَدَحَهُ، وَإِذَا وَرَدَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْمِلَلِ أَوِ الْمُؤَرِّخِينَ مَا يُخَالِفُ بَعْضَ هَذِهِ الْقِصَصِ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَجْزِمَ بِأَنَّ مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى نَبِيِّهِ وَنُقِلَ إِلَيْنَا بِالتَّوَاتُرِ الصَّحِيحِ هُوَ الْحَقُّ وَخَبَرُهُ هُوَ الصَّادِقُ، وَمَا خَالَفَهُ هُوَ الْبَاطِلُ، وَنَاقِلُهُ مُخْطِئٌ أَوْ كَاذِبٌ، فَلا نَعُدُّهُ شُبْهَةً عَلَى الْقُرْآنِ، وَلا نُكَلِّفُ أَنْفُسَنَا الْجَوَابَ عَنْهُ، فَإِنَّ حَالَ التَّارِيخِ قَبْلَ الإِسْلامِ كَانَتْ مُشْتَبِهَةَ الأَعْلامِ حَالِكَةَ الظَّلامِ، فَلا رِوَايَةَ يُوثَقُ بِهَا لِلْمَعْرِفَةِ التَّامَّةِ بِسِيرَةِ رِجَالِ سَنَدِهَا، وَلا تَوَاتُرَ يُعْتَدُّ بِهِ بِالأَوْلَى، وَإِنَّمَا انْتَقَلَ الْعَالَمُ بَعْدَ نــزولِ الْقُرْآنِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَكَانَ بِدَايَةَ تَارِيخٍ جَدِيدٍ لِلْبَشَرِ، كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ - لَوْ أَنْصَفُوا - أَنْ يُؤَرِّخُوا بِهِ أَجْمَعِينَ اهــ.

أَقُولُ: إِنَّ الَّذِي يَسْبِقُ إِلَى الذِّهْنِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ هُوَ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ شُئُونِ الأُمَمِ وَسِيَرِ الْعَالَمِ بَعْدَ الإِسْلامِ لَمْ يَنْطَمِسْ وَلَمْ تَذْهَبِ الثِّقَةُ بِهِ، وَلَمْ يَنْقَطِعْ سَنَدُ رُوَاتِهِ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ. وَبَيَانُ ذَلِكَ بِالإِجْمَالِ: أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ جَاءَ الْبَشَرَ بِهِدَايَةٍ جَدِيدَةٍ كَامِلَةٍ، كَانُوا قَدِ اسْتَعَدُّوا لِلاهْتِدَاءِ بِهَا بِالتَّدْرِيجِ الَّذِي هُوَ سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ،)[1].

سنة الله في الإهلاك بين العموم والخصوص:

الناظر في دلالة كلمة (سنة) في القرآن الكريم واللغة العربية يجد

١- المنار٢/٣٧٣،٣٧٤.

أنها عامة زمانا ومكانا وأفرادا سواء من ناحية الدلالة اللغوية أم من ناحية الوقوع والحدوث في عالم الأكوان والأحياء، فهي لا تخص جيلا دون جيل، ولا قبيلا دون قبيل، وسنة الله في الإهلاك فرع سنة الله العامة في كل سننه ونواميسه، لا تتخلف ولا تتأجل، وقد انطبقت هذه السنة على أمم نوح، ولوط، وهود، وصالح، وكل من كذب وعاند منهاج الله الحق، وصراطه المستقيم، فهي سنة عامة لا تتوقف عند عصر ولا تقتصر على قوم.

* * *

المبحث الثاني
موقف المسلمين من السنن الربانية
في نظر صاحب المنار

يرى صاحب المنار أن المسلمين عامة، والمفسرين خاصة — وهم القيادة الفكرية مع نظرائهم من العلماء للأمة الإسلامية - قصروا تقصيرا بَّينا في تفهمهم وإفادهم من علم السنن، وأن غيرهم سبقهم في هذا الميدان سبقا بعيدا، ولعل السبب في ذلك أن هذا العلم كتب في فترة تدني المسلمين وانحطاطهم وذهاب دولتهم، ويعجب لم لا يفيد المسلمون من هذا العلم وهم الذين أسسوه على يد مثل ابن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨هـ، ١٣٣٢- ١٤٠٦م)، وأن القرآن الكريم دعاهم إلى الإفادة منه دعوة صحيحة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا غموض؟!.

فيقول في تفسير قوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾**[1]: (ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الآيَاتِ - كَآيَةِ هُودٍ - مِنْ قَوَاعِدِ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لا يَزَالُ فِي طَوْرِ الْوَضْعِ وَالتَّدْوِينِ؛ وَهُوَ الْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي قُوَّةِ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَضَعْفِهَا، وَعِزِّهَا وَذُلِّهَا، وَغِنَاهَا وَفَقْرِهَا، وَبَدَاوَتِهَا

١- هود: ١١٧.

وَحَضَارَتِهَا، وَأَعْمَالِهَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَفَائِدَةُ هَذَا الْعِلْمِ فِي الأُمَمِ كَفَائِدَةِ عِلْمِ النَّحْوِ وَالْبَيَانِ فِي حِفْظِ اللُّغَةِ، وَفِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ أَهَمُّ قَوَاعِدِهِ وَأُصُولِهِ وَقَدْ سَبَقَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيَانِ بَعْضِهَا، وَبَدَأَ ابْنُ خَلْدُونَ بِجَعْلِهِ عِلْمًا مُدَوَّنًا يَرْتَقِي بِالتَّدْرِيجِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ، وَلَكِنِ (اسْتَفَادَ) غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ وَبَنَوْا عَلَيْهِ وَوَسَّعُوهُ فَكَانَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي سَادُوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ كَمَا كَانَ يَجِبُ ؛ لأَنَّهُ كُتِبَ فِي طَوْرِ تَدَنِّيهِمْ وَانْحِطَاطِهِمْ، بَلْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ الْعُلْيَا فِي إِقَامَةِ أَمْرِ مُلْكِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ عَلَى مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيمَنْ قَبْلَهُمْ. وَلاَ يَزَالُونَ مُعْرِضِينَ عَنْ هَذَا الرُّشْدِ وَالْهِدَايَةِ عَلَى شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا بِسَبَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ تَنَازُعُ الْبَقَاءِ بَيْنَ الأُمَمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، وَإِنَّا نَرَى بَعْضَهُمْ يُعَزِّي نَفْسَهُ عَنْ ضَعْفِ أُمَّتِهِ وَيَعْتَذِرُ عَنْ تَقْصِيرِهَا بِالْقَدَرِ الَّذِي يَفْهَمُهُ مَقْلُوبًا بِمَعْنَى الْجَبْرِ أَوْ يُسَلِّيهَا بِأَنَّ هَذَا مِنْ عَلامَاتِ السَّاعَةِ وَارْتَكَسَ بَعْضُهُمْ فِي حَمْأَةِ جَهْلِهِ بِالإِسْلاَمِ حَتَّى ارْتَدُّوا عَنْهُ سِرًّا أَوْ جَهْرًا زَاعِمِينَ أَنَّ تَعَالِيمَهُ هِيَ الَّتِي أَضْعَفَتْهُمْ وَأَضَاعَتْ عَلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ، وَالْتَمَسُوا هِدَايَةً غَيْرَ هِدَايَتِهِ لِيُقِيمُوا بِهَا دُنْيَاهُمْ فَخَسِرُوا الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)[1].

١- المنار: ٩٦/٨، ٩٧.

والسبب في ُبعد المسلمين كذلك عن التقدم وريادة العالم – في نظر صاحب المنار فهمهم المقلوب لبعض معاني الإسلام فيعزي الفرد نفسه عن ذلك بالجبر والفهم الخاطئ لأحاديث الساعة وزمان الفتن.

علم السنن بين المسلمين والغرب:

يقارن صاحب المنار بين المسلمين وغيرهم في إفادهم من علم السنن ويبين أن هذه السنن ماضية لا تتخلف ولا تتأجل، سواء عرف الآخذون بها مصدرها ومسيرها أم لم يعرفوا، وأنه لو استوى شعبان في الأخذ بهذه السنن وافترقوا في الإيمان بالله – تعالى– فأكثرهم فائدة من السنن أقربهم إلى الإيمان بالله، (فَرُبَّمَا تَرَى قَوْمًا يَدَّعُونَ الإِيمَانَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ – كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ، يَعْتَمِدُونَ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِمْ مِنْ شِفَاءِ مَرَضٍ وَسَعَةِ رِزْقٍ وَنَصْرٍ عَلَى عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى التَّوَسُّلِ بِبَعْضِ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَذَبْحِ النُّذُورِ لَهُمْ وَدُعَائِهِمْ وَالطَّوَافِ بِقُبُورِهِمْ وَالتَّمَسُّحِ بِهَا، وَتَجِدُ آخَرِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِثْلُ اعْتِقَادِهِمْ وَعَمَلِهِمْ هَذَا وَهُمْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ صِحَّةً، وَأَوْسَعُ رِزْقًا وَأَعَزُّ مُلْكًا، وَإِذَا قَاتَلُوهُمْ يَنْتَصِرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسُودُونَهُمْ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ سُنَنَ اللهِ فِي الأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، وَأَنَّ الرَّغَائِبَ إِنَّمَا تُنَالُ بِالأَعْمَالِ مَعَ مُرَاعَاةِ تِلْكَ السُّنَنِ، سَوَاءٌ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ – تَعَالَى– رَبَّ الْخَلْقِ هُوَ الْخَالِقُ وَالْوَاضِعُ لِنِظَامِ خَلْقِهِ بِتِلْكَ السُّنَنِ،

وَأَنَّهُ لاَ تَبْدِيلَ لِسُنَنِهِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِهِ أَمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ.

وَلَوِ اسْتَوَى شَعْبَانِ مِنَ النَّاسِ فِي الْجَرْيِ عَلَى هَذِهِ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ لِلاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ وَالْعِزِّ وَالذُّلِّ وَالْحُرِّيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِنًا بِاللهِ مُسْتَمْسِكًا بِوَصَايَاهُ وَهِدَايَةِ دِينِهِ، وَالآخَرُ كَافِرًا بِهِ غَيْرُ مُهْتَدٍ بِوَصَايَاهُ، فَلاَ شَكَّ فِي أَنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُهْتَدِيَ يَكُونُ أَعَزَّ وَأَسْعَدَ فِي دُنْيَاهُ مِنَ الآخَرِ، كَمَا أَنَّهُ يَكُونُ فِي الآخِرَةِ هُوَ النَّاجِيَ مِنَ الْعَذَابِ، الْفَائِزَ بِالثَّوَابِ)[1].

حث القرآن على علم الاجتماع:

لفت القرآن أنظار المسلمين إلى السير والنظر والتفكر في سير الغابرين ومصارع الهالكين عبرة وعظة، وتدبرا وتفكرا، فقال تعالى- داعيا إلى النظر في آثار السابقين وعمرانهم للأرض وموقفهم من الآيات البينات والرسل المؤيدين بها، ومبينا أنه تعالى لم يظلمهم في ذلك ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم من خلال تكذيبهم واستهزائهم بالمرسلين والآيات:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا

١- المنار: ٨/٢٢١، ٢٢٣.

عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠))[١].

وقال (تعالى): (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥))[٢].

وقال(تعالى): (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢))[٣].

وقال (تعالى): (قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ

١- الروم: ٨،٩.
٢ - فاطر: ٤٤، ٤٥.
٣- غافر: ٢١،٢٢.

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِين)[1].

وقال تعالى: (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)**[2].

وقال تعالى: (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢٠))[3].

ويرى صاحب المنار أن السياحة والسير في الأرض واجب شرعي[4]، ويعتبر ذلك أصلا من الأصول التي قامت عليها سورة الأنعام، يقول وهو يتناول أصول سورة الأنعام:

((الأَصْلُ الرَّابِعَ عَشَرَ) النَّظَرُ فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ وَعَوَاقِبِ الأَقْوَامِ الَّتِي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ فِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ فِي أَرْضِهَا وَرُؤْيَةِ آثَارِهَا وَسَمَاعِ أَخْبَارِهَا كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ الَّتِي اسْتَدْلَلْنَا بِهَا آنفًا عَلَى الأَصْلِ السَّابِقِ وَهِيَ (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)** (١١). وَهَذَا النَّظَرُ وَالاعْتِبَارُ لا خِلافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ فِي وُجُوبِهِ شَرْعًا، وَكَوْنِهِ مَطْلُوبًا لِذَاتِهِ وَمَقْصُودًا مِنَ السِّيَاحَةِ وَالسَّيْرِ فِي الأَرْضِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي السَّفَرِ نَفْسِهِ إِذَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ ذَلِكَ.....

١- الأنعام: ١١.
٢- النمل: ٦٩.
٣- الروم: ٢٠.
٤- المنار: ٨/٢٥٥.

وَقَدْ نَبَّهَتْ آيَةُ آلِ عِمْرَانَ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ الْعِلْمِ الَّتِي تُسْتَفَادُ مِنَ السِّيَاحَةِ وَاخْتِبَارِ أَحْوَالِ الأُمَمِ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ فِي شُئُونِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِعِلْمِ الاجْتِمَاعِ وَهِيَ: **(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا)** (آل عمران: ١٣٧) الآيَةَ. وَنَبَّهَتْ آيَةُ الْعَنْكَبُوتِ إِلَى أَصْلٍ آخَرَ وَهُوَ الْبَحْثُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِبَدْءِ الْخَلْقِ مِنَ الآثَارِ؛ لِيَكُونَ مِنْ فَوَائِدِهِ قِيَاسُ النَّشْأَةِ الآخِرَةِ عَلَى النَّشْأَةِ الأُولَى وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)** (العنكبوت: ٢٠) الآيَةَ. وَنَبَّهَتِ الآيَةُ الأُولَى مِنْ آيَتَيْ سُورَةِ الرُّومِ إِلَى النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ وَآثَارِهَا الْخَاصَّةِ بِالْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ وَمَوَارِدِ الثَّرْوَةِ الزِّرَاعِيَّةِ وَسَائِرِ شُئُونِ الْعُمْرَانِ، وَكَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ذَلِكَ وَأَسْبَابُهُ، لِيُعْلَمَ أَنَّ الْقُوَّةَ وَالثَّرْوَةَ لا تَحُولُ دُونَ هَلَاكِ الأُمَّةِ إِذَا اسْتَحَقَّتْ ذَلِكَ بَالظُّلْمِ وَكُفْرِ النِّعْمَةِ وَهِيَ **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا)** (الروم: ٩) إِلَخْ. وَفِي مَعْنَاهَا آيَةُ فَاطِرٍ (٣٥: ٤٤) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِمَسْأَلَةِ الْقُوَّةِ، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْ بَعْدَ بَيَانِ سُنَّةِ اللهِ فِي الأَوَّلِينَ، وَأَنَّ سُنَنَ اللهِ لا تَبْدِيلَ لَهَا وَلا تَحْوِيلَ، فَهِيَ تُرْشِدُ بِمَوْقِعِهَا إِلَى الْبَحْثِ عَنْ تِلْكَ السُّنَنِ. وَفِي مَعْنَاهَا آيَتَا سُورَةِ غَافِرٍ (٤٠: ٢١ و٨٢) فَهُمَا

تُرْشِدَانِ إِلَى الاعْتِبَارِ بِقُوَّةِ الأُمَمِ وَآثَارِهَا فِي الأَرْضِ، فَتُزِيدُ عَلَى مَا قَبْلَهَا الإِرْشَادَ إِلَى الاسْتِفَادَةِ مِنْ صِنَاعَاتِ الأَوَّلِينَ وَطُرُقِ كَسْبِهِمْ، وَالاعْتِبَارِ بِكَوْنِهَا لَمْ تَكُنْ وَاقِيَةً لَهُمْ مَعَ قُوَّتِهِمُ الْحَرْبِيَّةِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الأُمَّهَاتِ مِنْ أُصُولِ عُلُومِ الاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ عَلَى سَبِيلِ الاسْتِطْرَادِ اخْتِصَارًا، وَهُوَ كَافٍ لِتَذْكِيرِ مُسْلِمِي هَذَا الْعَصْرِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ أَرْشَدَ الْبَشَرَ إِلَى جَمِيعِ وَسَائِلِ سَعَادَةِ الأُمَمِ وَالأَفْرَادِ فِي أَمْرَيِ الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ)[1].

حث القرآن على تعلم التاريخ، والإفادة منه:

حرص القرآن على دعوة المسلمين إلى العلم بتاريخ الأمم، والإفادة مما حل بهم من خير وشر وبؤس ونعم، حتى يصلوا بهذا الوعي إلى سعي يمنعهم من التردي فيما تردى فيه السابقون وأن يفيدوا من الخير الذي وصلوا إليه ومن ذلك ما عناه القرآن الكريم من دعوة المسلمين إلى السير والنظر والتفكر والتدبر في آثار الغابرين.

(فللتاريخ تأثير كبير على حياة الإنسان ومستقبله، ومع أن أحداثه مضت إلا أنها تُبقي بصماتها وآثارها واضحة على سلوك الإنسان وممارساته، وتسهم بشكل غير مباشر في تحريك أحداث الحياة

١- المنار: ٢٥٥/٨.

البشرية ودفع مسيرة الوجود الإنساني على الأرض.

ولقد اهتم القرآن الكريم بأحداث التاريخ، وفسح لها مساحة كبيرة فيه، وتخير منها الجانب المؤثر المنسجم مع الموضوعات التي يعالجها.

ولئن كانت دراسة التاريخ، وبيان الأسباب المحركة لحوادثه، من العلوم المتأخرة التي عرفها الناس، فلقد سبق القرآن الكريم إلى هذا العلم، فلم يكتف بعرض وقائع التاريخ كما حدثت، كما فعل قدماء المؤرخين وكتاب التاريخ، بل عرض الحدث التاريخي من خلال الأسباب الكامنة وراءه، ومن خلال النواميس الكونية الكبرى التي أبدعها الخالق العظيم لهذا الكون)[1].

يقول ابن خلدون في مقدمته الرائدة: (اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم. والأنبياء في سيرهم. والملوك في دولهم وسياستهم. حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا؛ فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت، يفضيان بصاحبهما إلى الحق، وينكبان به عن

١- أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف، د. عبـــد الحميـــد طهماز، صـــ٥،، ط: دار القلم، ط أولى ١٤١٢هـــ، ١٩٩٢م، بتصرف يسير.

المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً و لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم و الغلط و لا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال و العساكر إذا عرضت في الحكايات إذ هي مظنة الكذب و مطية الهذر ولا بد من ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد)[1].

والمسلم الواعي لا يتوقف فقط عند أحداث التاريخ وسردها، بل يحللها ويعي ما وراءها من خلفيات حضارية وثقافية وعادات الشعوب وتقاليدها ويعي كيف يتجنب الوقوع في أسباب أودت بالسابقين من الأمم التي ذكرها القرآن الكريم وحذر من النسج على منوالها، ففرق بين العلم بالتاريخ وبين الوعي به وصناعته، لما يترتب

١- مقدمة ابن خلدون: ٢١، ط دار الفكر، ط أولى ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

على ذلك من إضافة خبرات إلى الواعي بالتاريخ فوق خبرته وأعمار فوق عمره.

(فالوعي بالتاريخ يكسب أصحابه إلى جانب عمرهم وعمر أسلافهم أيضا عمر الأجيال التي لم تأت بعد؛لأن الوعي بالتاريخ تتجاوز فائدته وثمراته حدود الاستفادة بهذا الوعي في حياتنا الحاضرة وبناء واقعنا المعيش إلى التأثير في المستقبل القريب منه والبعيد، ومن ثم فنحن نضيف إلى أعمارنا إذا وعينا تاريخنا أعمار الأقدمين ونسهم كذلك في زيادة أعمار الأجيال القادمة، بما نضعه على دروبها من أضواء وما نقدمه لتجاربها وخبراتها من إضافات..

ومن هنا حق لنا أن نقول: إن الوعي بالتاريخ إنما يمثل سلاحاً من أكثر الأسلحة فعالية في بناء مستقبل الأمة التي تجاوز أبناؤها حدود (القراءة) لتاريخها إلى رحاب (الوعي) بهذا التاريخ... إن قضية الوعي بالتاريخ لا تتطلب فقط ذكاء الدارس والباحث والمؤرخ، وقدرته على الفهم والتحليل، وإنما لابد لهذه المهمة من الارتكاز على مهج علمي في دراسة التاريخ وتناول صفحاته وأحقابه وأحداثه والعلاقات التي تربط ربطا موضوعياً وجدليا بين ما يراه البعض ركاما من الأحداث، ومن ثم اكتشاف الروح السارية دائما والنامية أبدا في هذا التاريخ، ودرجة النمو واتجاه السير، وعلاقة ذلك بالقوى الاجتماعية

والتيارات القومية والتأثيرات الداخلية والمؤثرات الخارجية، وعوامل المد والتصاعد وقوى الجزر والهبوط التي اعترضت وتعترض مسار الأمم والطبقات في هذه المسيرة التي لا زالت زاحفة والتي بدأت مع بدء الإنسان ممارسة الحياة...)[1].

العلم بالتاريخ وعلاقته بفهم القرآن:

ربط القرآن الكريم بين فهم القرآن وإدراك تاريخ الأمم والجماعات البشرية فدعا الناس إلى السير في الأرض والتعرف على الوقائع والأحداث ولأمر ما كان نـــزول القرآن مرتبا على الحوادث والوقائع، ولأمر ما كان ما يعرف بأسباب النـــزول وترتب فهم القرآن على معرفة هذا السبب وما يحتف به من قرائن، يقول صاحب المنار وهو يتحدث عن الأمور التي تتم بها أعلى درجة من التفسير: ((ثَالِثُهَا): عِلْمُ أَحْوَالِ الْبَشَرِ، فَقَدْ أَنــزلَ اللهُ هَذَا الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ آخِرَ الْكُتُبِ، وَبَيَّنَ فِيهِ مَا لَمْ يُبَيِّنْهُ فِي غَيْرِهِ. بَيَّنَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَحْوَالِ الْخَلْقِ وَطَبَائِعِهِمْ وَالسُّنَنَ الإِلَهِيَّةَ فِي الْبَشَرِ، قَصَّ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ عَنِ الْأُمَمِ وَسِيَرِهَا الْمُوَافِقَةِ لِسُنَّتِهِ فِيهَا. فَلا بُدَّ لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ فِي أَطْوَارِهِمْ وَأَدْوَارِهِمْ، وَمَنَاشِئِ اخْتِلافِ

١- الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ: ٣٣،٣٤، د. محمد عمارة، ط: دار الرشـــاد ط الثانية، ١٤١٧هـــ ١٩٩٧م.

أَحْوَالِهِمْ، مِنْ قُوَّةٍ وَضَعْفٍ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ، وَعِلْمٍ وَجَهْلٍ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَمِنَ الْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ، وَيُحْتَاجُ فِي هَذَا إِلَى فُنُونٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَهَمِّهَا التَّارِيخُ بِأَنْوَاعِهِ.

قَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ: أَنَا لا أَعْقِلُ كَيْفَ يُمْكِنُ لأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ قَوْلَهُ تَعَالَى: (**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ**) (٢: ٢١٣) الآيَةَ – وَهُوَ لا يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْبَشَرِ، وَكَيْفَ اتَّحَدُوا، وَكَيْفَ تَفَرَّقُوا؟ وَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْوَاحِدَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَافِعَةً أَمْ ضَارَّةً؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ آثَارِ بَعْثِهِ النَّبِيِّينَ فِيهِمْ)[١].

فهم الغرب للسنن وفهم المسلمين لها:

الناظر في واقع المسلمين فكرا وثقافة، وعملا وتطبيقا يرى مدى انحراف كثير منهم عن عطاءات القرآن الكريم، وبعدهم عن هداياته، وليس في ذلك تجني على الواقع، ولا جلد للذات ولا تشاؤم ولا نفور فالمتابع للواقع يجد أن الأمة التي أمرت بالسير والنظر لا تنظر ولا تسير، وإن سارت فللمتعة والرفاهة وإن نظرت فللإمتاع والإشباع إلا من رحم الله، على العكس من ذلك لدى الغرب الذي لم يؤمر بالسير كما أمر المسلمون ولكن الواقع المعيش الذي يحسونه، بل يدفعهم دفعا إلى ذرع الأرض واكتشاف خيراتها والإفادة منها بل

١– المنار: ٢١،٢٠/١.

الهيمنة عليها وتوجيهها ولقد عالج صاحب المنار هذه القضية في تفسيره إذ يقول: (إِنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي الأُمَمِ الَّتِي تَرِثُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا الأُصَلاءِ هِيَ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي أَهْلِهَا، فَإِذَا كَانَ هَؤُلاءِ قَدْ غُلِبُوا عَلَيْهَا؛ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ وَجَهْلِهِمْ وَعَمَى قُلُوبِهِمْ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ شَأْنُ الْوَارِثِينَ لَهَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِذَا صَارُوا مِثْلَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (**أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** (١٠٠)) وَكُنَّا نَرَى الَّذِينَ وَرِثُوا مَمَالِكَ الْمُسْلِمِينَ مُتَّعِظِينَ بِمَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، فَهُمْ عَلَى كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ بِالظُّلْمِ وَإِفْسَادِ الْعَقَائِدِ وَالأَخْلاقِ وَسَلْبِ الأَمْوَالِ يَتَحَرَّوْنَ أَنْ يَكُونَ ظُلْمُهُمْ دُونَ ظُلْمِ حُكَّامِ أَهْلِ الْبِلادِ الَّذِينَ أَضَاعُوهَا، وَعُقُولُهُمْ تَبْحَثُ دَائِمًا فِي الأَسْبَابِ الَّتِي يُخْشَى أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِسَلْبِهَا مِنْهُمْ؛ لأَجْلِ اتِّقَائِهَا، وَآذَانُهُمْ مُرْهَفَةٌ مُصِيخَةٌ لاسْتِمَاعِ كُلِّ خَبَرٍ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِهَا وَأَمْرِ أَهْلِهَا وَشُئُونِ الطَّامِعِينَ فِيهَا حَذَرًا مِنْهُمْ أَنْ يَسْلُبُوهُمْ إِيَّاهَا.

وَقَدْ قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ: قَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا كِتَابُهُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يَتَّقُوهُ تَعَالَى بِاتِّقَاءِ كُلِّ مَا قَصَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذُنُوبِ الأُمَمِ الَّتِي هَلَكَ بِهَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، وَزَالَ مُلْكُهُمْ، وَدَالَتْ بِسَبَبِهَا الدَّوْلَةُ لأَعْدَائِهِمْ إِلَى آخِرِ مَا تَرَاهُ فِي ٢٨ وَمَا بَعْدَهَا

ج ٩ ط الْهَيْئَةِ..)[1].

فالغرب المتسلط يدرك أن سبب زوال ممالك بعض الإسلام هو: الظلم الواقع على أهلها من أهلها، فهم يحذرون أن يسلب ما في أيديهم إن هم وقعوا في نفس الظلم ويتحاشون ذلك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ويتجنبون الجهل والفساد الذي أضاع الممالك من أيديهم، فهم يقفون عمليا عند السنن ويفيدون منها بما يخدم أغراضهم ويحقق أهدافهم، ويحفظ عليهم ما استلبوه من المسلمين الغافلين.

الفرق بين علم الغرب للسنن وعلم المسلمين:

ويفرق صاحب المنار بين وعي الغرب لعلم السنن ووعي المسلمين بأن علم المسلمين بالسنن غير كامل لأنهم ما أفادوا منه وإنما اعتمدوا على حكام ليس لهم علم بكتاب ولا سنة ويندر منهم من له إلمام بالتفسير والحديث ونحوهما مما يعين على تفهم علم السنن أما الغرب فمن واقع التجربة والرصد يتهيئون لما يتوقعون فيفيدون من علم السنن ما ينتفعون به.

(فَإِنْ قِيلَ: إِنَّنَا نَرَى غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ يَعْلَمُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا لا يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ السُّنَنِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ،

١- المنار: ٤٨٣/٩.

وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا عِبَرًا وَتَقْوًى لِلْمُضَارِّ، يَظْهَرُ أَثَرُهَا بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِلْمَصَائِبِ قَبْلَ وُقُوعِهَا، حَتَّى لا تَأْخُذَهُمْ بَغْتَةً، وَحَتَّى يَتَلافَوْا شُرُورَهَا بَعْدَ وُقُوعِهَا بِقَدْرِ الطَّاقَةِ، وَنَرَى أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ جَاهِلِينَ وَغَافِلِينَ عَنْ ذَلِكَ، وَقَدْ فُتِنَ بَعْضُهُمْ بِهَؤُلاءِ الإِفْرِنْجِ وَحَسِبُوا أَنَّهُمْ لا يَكُونُونَ مِثْلَهُمْ فِي اسْتِمْتَاعِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِدَفْعِ الشَّدَائِدِ، وَالاسْتِفَادَةِ مِنَ الأَحْدَاثِ وَالْوَقَائِعِ، إِلاَّ إِذَا تَرَكُوا الإِسْلامَ وَنَبَذُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ!! كَمَا فُتِنُوا هُمْ بِالْمُسْلِمِينَ بِاحْتِقَارِهِمْ لِدِينِهِمْ تَبَعًا لاحْتِقَارِهِمْ لَهُمْ، وَطَعْنًا فِيهِ بِمَا يَظُنُّونَ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِي إِذْلالِهِمْ وَإِضْعَافِهِمْ، فَمَا قَوْلُكَ فِي ظُلْمِ الْفَرِيقَيْنِ لَهُ، وَفِي انْتِهَاءِ الْحَرْبِ الْعَامَّةِ الأَخِيرَةِ بِاسْتِيلاءِ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَقْطَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلادِ الْمُسْلِمِينَ؟ وَكَوْنِ أَشَدِّ أَهْلِ هَذِهِ الأَقْطَارِ اسْتِسْلامًا لِلذُّلِّ وَخُضُوعًا لِلْقَهْرِ، هُمُ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ أَصَحُّ إِيمَانًا، وَأَحْسَنُ إِسْلامًا؟ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ فِتْنَةً لِبَعْضِ زُعَمَاءِ شَعْبٍ سَلِمَ مِنَ الْهَلاكِ بَعْدَ أَنْ كَادَ يُحَاطُ بِهِ، فَظَنُّوا أَنَّ التَّقَيُّدَ بِالإِسْلامِ سَبَبُ الْهَلَكَةِ وَالإِلْقَاءِ بِالأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَأَنَّ فِي الانْسِلالِ مِنْهُ الْمَنْجَاةَ وَارْتِقَاءَ الْمَمْلَكَةِ؟!

قُلْنَا: إِنَّنَا كَشَفْنَا أَمْثَالَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ فِي تَفْسِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ، وَفِي غَيْرِ التَّفْسِيرِ مِنَ الْمَنَارِ، وَبَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَرَكُوا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ فِي حُكُومَاتِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الْعَامَّةِ، وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَى

حُكَّامِهِمُ الَّذِينَ يَنْدُرُ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ إِلْمَامٌ بِتَفْسِيرِهِ أَوْ عِلْمِ السُّنَّةِ، حَتَّى مَنْ سَلَّمُوا لَهُمْ بِمَنْصِبِ خِلافَةِ النُّبُوَّةِ، كَمَا تَرَكُوا هِدَايَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي أَعْمَالِ الأَفْرَادِ، فَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْرِفُ مِنْ دِينِهِ إِلاَّ مَا يَسْمَعُهُ وَيَرَاهُ مِمَّنْ يَعِيشُ مَعَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ، وَفِيهِ الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ وَالسُّنَّةُ وَالْبِدْعَةُ، وَأَقَلُّهُمْ يَتَلَقَّى عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ بَعْضَ كُتُبِ الْكَلامِ الْجَدَلِيَّةِ الَّتِي أَلِفَت الرَّدَّ عَلَى فَلْسَفَةٍ نُسِخَتْ وَبِدَعٍ بَادَ أَهْلُهَا، وَكُتُبِ الْفِقْهِ التَّقْلِيدِيَّةِ الْخَالِيَةِ مِنْ جُلِّ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي مِثْلِ مَوْضُوعِ الآيَاتِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا)[1].

ويعقب على القول بأن الغرب يعلم السنن ويفيد منها بقوله:

(وَأَمَّا الإِفْرِنْجُ، فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ وَاسِعٍ بِسُنَنِ اللهِ فِي أَحْوَالِ الْبَشَرِ وَسَائِرِ أُمُورِ الْكَوْنِ، قَدْ نَالُوا بِهِ مُلْكًا عَظِيمًا فِي الأَرْضِ، فَأَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُ مَصْدَرَ هَذِهِ السُّنَنِ وَحِكَمَ اللهِ تَعَالَى فِيهَا، وَلا يَعْتَبِرُونَ حَقَّ الاعْتِبَارِ بِمَا تَعَقَبَّ الشُّرُورَ وَالْمَعَاصِيَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، فَهُمْ كَأَقْوَامِ أُولَئِكَ الرُّسُلِ الَّذِينَ لَمْ تُفِدْهُمُ النِّعَمُ شُكْرَ الرَّبِّ الْمُنْعِمِ، وَلَمْ تُفِدْهُمُ النِّقَمُ تَقْوَى الرَّبِّ الْمُنْتَقِمِ، فَقَدِ اسْتَعْمَلُوا نِعَمَهُ بِالْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَتَسْخِيرِ قُوَى الْعَالَمِ لاسْتِعْبَادِ الضُّعَفَاءِ، وَالسَّرَفِ فِي فُجُورِ الأَغْنِيَاءِ، وَالتَّقَاتُلِ عَلَى السُّلْطَانِ وَالثَّرَاءِ؛ وَلِذَلِكَ

١- ٩/١٧، ١٨.

سَلَّطَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَصَدَقَ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يفقهون**) (الأنعام: ٦٥)....

فَعُلِمَ بِمَا ذُكِرَ وَبِغَيْرِهِ أَنَّ الْعِلْمَ بِسُنَنِ الاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ لا يُغْنِي عَنْ هِدَايَةِ الدِّينِ الَّتِي تُوقِفُ أَهْوَاءَ الْبَشَرِ وَمَطَامِعَهُمْ أَنْ تَجْمَحَ إِلَى مَا لا غَايَةَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ، وَلَوْلا أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ أُمَمِ أُورُبَّةَ بَقِيَّةً قَلِيلَةً مِنْهَا تَتَفَاوَتُ فِي أَفْرَادِهِمْ قُوَّةً وَضَعْفًا لَحَشَرَتْهُمُ الْمَطَامِعُ وَالأَحْقَادُ صَفًّا صَفًّا، فَدَكُّوا مَعَالِمَ أَرْضِهِمُ الَّتِي بَلَغَتْ مُنْتَهَى الْعُمْرَانِ دَكًّا دَكًّا، فَجَعَلُوهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا، بَلْ لَجَعَلُوهَا بَعْدَ دَكِّ صُرُوحِهَا وِهَادًا عَمِيقَةً، وَمَهَاوِيَ سَحِيقَةً، بِقَذَائِفِ الْمَدَافِعِ الضَّخْمَةِ الَّتِي تَشُقُّ الأَرْضَ شَقًّا، وَتَسْحَقُ مَا فِيهَا سَحْقًا، عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ شَرَعُوا، فَإِمَّا أَنْ يُجَهِّزُوا وَإِمَّا أَنْ يَنــــزِعُوا)[1].

الآثار المترتبة على جهل المسلمين بالسنن:

يعالج صاحب المنار الحديث عن جهل المسلمين بعلم السنن ويشخص الأسباب ويلمس الواقع الذي يدفعهم لذلك، مبينا أثر هذا الجهل بقوانين الله تعالى والإعراض عنها فيقول:

١- ١٩/٩.

(تَرَى شُعُوبَ الْمُسْلِمِينَ يَجْهَلُونَ هَذِهِ السُّنَنَ الإِلَهِيَّةَ، وَمَا ضَاعَ مُلْكُهُمْ وَعِزُّهُمْ إِلاَّ بِجَهْلِهَا الَّذِي كَانَ سَبَبًا لِعَدَمِ الاهْتِدَاءِ بِهَا فِي الْعَمَلِ، وَمَا كَانَ سَبَبُ هَذَا الْجَهْلِ إِلاَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الْقُرْآنِ، وَدَعْوَى الاسْتِغْنَاءِ عَنْ هِدَايَتِهِ بِمَا كَتَبَهُ لَهُمُ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ كُتُبِ الْعَقَائِدِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْكَلامِيَّةِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَمَا كَتَبَهُ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالْعُقُوبَاتِ وَالْحَرْبِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَهَذِهِ السُّورَةُ الْجَلِيلَةُ الْكَبِيرَةُ الْقَدْرِ وَالْفَوَائِدِ (الأَعْرَافُ) خَالِيَةٌ مِنْ هَذِهِ الأَحْكَامِ كُلِّهَا، وَمِنْ نَظَرِيَّاتِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعَقَائِدِ وَتَقْرِيرِهِمْ لَهَا، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ. فَهَلْ أَنــزلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّوَرَ كُلَّهَا لِلتَّعَبُّدِ بِتَجْوِيدِ أَلْفَاظِهَا بِدُونِ فَهْمٍ، أَوْ لاتِّخَاذِهَا رُقًى وَتَمَائِمَ، وَكَسْبًا لِقُرَّاءِ الْمَآتِمِ؟.

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ الْجَهْلَ بَلَغَ بِهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ ظَهَرَ فِيهِمْ فَرِيقٌ خَصْمٌ لِهَذَا الْفَرِيقِ الْمُقَلِّدِ الْمُحَافِظِ عَلَى كُتُبِ الْقُرُونِ الْوُسْطَى دُونَ هَدْيِ السَّلَفِ، خَصْمٌ يَقُولُ: إِنَّ دِينَ الإِسْلامِ هُوَ السَّبَبُ فِي جَهْلِ الْمُسْلِمِينَ وَضَعْفِهِمْ، وَلا حَيَاةَ لَنَا إِلاَّ بِاقْتِبَاسِ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ وَسُنَنِ الْعُمْرَانِ مِنَ الأُمَمِ غَيْرِ الإِسْلامِيَّةِ الَّتِي سَادَتْنَا بِهَذِهِ الْعُلُومِ، وَمَا يُؤَيِّدُهَا مِنَ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ، وَهَؤُلاءِ أَجْهَلُ بِالإِسْلامِ مِنْ أُولَئِكَ، فَكِتَابُ الإِسْلامِ هُوَ الْمُرْشِدُ الأَوَّلُ لِسُنَنِ الاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ، وَلَكِنَّ

الْمُسْلِمِينَ قَصَّرُوا فِي طَوْرِ حَيَاتِهِمُ الْعِلْمِيَّةِ عَنْ تَفْصِيلِ ذَلِكَ بِالتَّدْوِينِ لِعَدَمِ شُعُورِهِمْ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَكَانَ حَقُّهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْ يَكُونُوا أَوْسَعَ النَّاسِ بِهِ عِلْمًا؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللهِ مُؤَيِّدٌ لِلْحَاجَةِ بَلِ الضَّرُورَةِ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهِ)[1].

وفي هذا تلخيص دقيق، ووصف عميق لواقع المسلمين، بين جمود واقف على كتب المتكلمين والمبتدعة، أو وقوف عند ما كتبه الفقهاء لزمانهم وعصرهم، وبين إنكار يتجاوز الطرف الأول ويلصق تهمة التأخر بالإسلام، وينسب إليه سبب التراجع وعدم النهوض، وكلا الفريقين يجهل أن أصل السنن وعلم الاجتماع موجود في كتاب الله تعالى.

إن صاحب المنار يحذر من البعد عن سنن الله تعالى وعدم وعيها فيقول – وهو يتناول سورة الأنعام: ((**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**) أَيْ إِنَّهُ – تَعَالَى- سَرِيعُ الْعِقَابِ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ أَوْ بِنِعَمِهِ وَخَالَفَ شَرْعَهُ وَتَنَكَّبَ سُنَنَهُ، وَسُرْعَةُ الْعِقَابِ تَصْدُقُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِنَّ الْعِقَابَ الْعَامَّ عِبَارَةٌ عَمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ مِنْ سُوءِ التَّأْثِيرِ، وَهُوَ فِي الدُّنْيَا مَا حُرِّمَتْ لِأَجْلِهِ مِنَ الضَّرَرِ فِي النَّفْسِ أَوِ الْعَقْلِ أَوِ الْعِرْضِ أَوِ الْمَالِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشُّئُونِ

١– المنار: ٤٨٢/٩.

الاجْتِمَاعِيَّة، فَإِنَّ الذُّنُوبَ مَا حُرِّمَتْ إِلاَّ لِضَرَرِهَا، وَهُوَ وَاقِعٌ مُطَّرِدٌ فِي الدُّنْيَا فِي ذُنُوبِ الأُمَمِ وَأَكْثَرِيٌّ فِي ذُنُوبِ الأَفْرَادِ، وَلَكِنَّهُ يَطَّرِدُ فِي الآخِرَةِ بِتَدْنِيسِهَا النَّفْسَ وَتَدْسِيَتِهَا كَمَا وَضَّحْنَاهُ مِرَارًا، وَقَدْ يَسْتَبْطِئُ النَّاسُ الْعِقَابَ قَبْلَ وُقُوعِهِ؛ لأَنَّ مَا فِي الْغَيْبِ مَجْهُولٌ لَدَيْهِمْ فَيَسْتَبْعِدُونَهُ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ مَعْلُومٌ مَشْهُودٌ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ (**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا**) (المعارج: ٦، ٧))[1].

ويمكن أن نلخص بعض الآثار المترتبة على إهمال المسلمين لعلم السنن في نقاط على النحو التالي:

١- ضياع ملكهم وعدم أخذ العبرة من التاريخ الذي يعيد نفسه بصورة أو بأخرى على اختلاف بين المؤرخين، فلم يقف كثير من المسلمين على أسباب سقوط دولهم وأسباب نهضتها مما جعلهم يحذون حذو السابقين حذو القذة بالقذة مهما عرفوا مصيرهم ومآلهم.

٢- ضياع عزهم من جراء تسلط عدوهم عليهم وامتلاك خيراتهم والتحكم في سلطانهم فقد خرج الغرب من بلاد المسلمين وهو يضمن أن المسلمين أنفسهم سيعيدون الكرة ويقعن في الشرك الذي نصبوه لهم، وقد كان فلا يفيد اللاحق من السابق، ولا

١- المنار: ٨/٢٢٤.

يعتبر بما حل به، ونظرة عجلى- فضلا عن المتأنية- في أسباب سقوط الدول بداية من الدولة الأموية حتى الآن ترينا بجلاء ووضوح هذا الأمر.

٣- اضطراب نظرتهم إلى المفاهيم لفقدانهم المرجعية الصحيحة مع وجودها وبعدهم عن مصدر الهداية على الرغم من وضوحه وثباته.

* * *

المبحث الثالث
موقف المسلمين من سنة الله في إهلاك الأمم

تبين من واقع المسلمين المعيش مدى بعدهم عن الاعتبار بسنة الله — تعالى- عامة وبعدهم عن معرفة سنة الله في إهلاك الأمم خاصة، من هنا تكرر في القرآن الكريم نداؤهم، ولفت أنظارهم إلى العظة والعبرة بهذه السنة الماضية، والقانون الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل، وكم وقعت من ممالك المسلمين دول وبادت شعوب وانتهت عروش واللاحق ينسج على منوال السابق، والخالف يتبع السالف، حتى لو دخل جحر ضب لدخله وراءه، وكم رصد أولو الألباب من علل، وشخصوا من أدواء؛ تنفيرا من ورود السابق موارد الهلكة، التي وقع فيها من غبر، والأمة بمجموعها تحدو نحو مواطن الهلاك، وأسباب الفناء، وإذا قورن حديث المسلمين عن العبرة بالأمم السابقة، وحديثهم عن فروع الفقه لظهرت منهجية التفكير التي يحيا بها المسلمون، لقد سقطت دول وانكسرت عروش وتبدلت خلافات، واستعبدت شعوب، وانتهكت أعراض، واغتصبت أراض، وغرقت في المياه كتب، وأين من حلل هذه الأحداث وأظهر أسبابها، وعلل أحدوثها، ورد نتائجها لمقدماتها؟ وربط خوافيها بأوائلها؟، أين

الأزهر ودراساته؟ وأين مكة والمدينة وبحوثهما؟ أين الزيتونة والقرويون والأموي؟ بأي قضية شغل شيوخها؟ أين الدراسات التي عنيت ببيان أسباب الخلل، ومواطن العلل، وتشريح هذه الأحداث تشريحا يبصر بالعاقبة، ويعرف بالنتيجة، ويقف الأمة على أسباب المصيبة كي لا تتكرر مرة أخرى، وأسباب النكبة حتى نفيد منها، ضاعت الأندلس، وضاعت فلسطين فكم من الدراسات والبحوث والمؤتمرات والندوات التي دعت إلى البصر بمواطن الداء؟ إنه لو قيس الكم المعرفي الذي خلفه السابقون في فروع الفقه بالكم الذي يدعو إلى البصر والنظر والتغلل الحقيقي لأسباب المحنة العامة والخاصة لبان للرائي هول الفرق وبعد ما بين منهج للتفكير ومنهج، وطريقة في التناول وطريقة هل يكون حظ التعليق على ضياع الأندلس قصيدة

لكل شيء إذا ما تم نقصان .·. فلا يغر بطيب العيش إنسان[1]

أم يكون نصيبها سؤالا عابرا نحو:

قلت يوما لدار قوم تفانوا   أين سكانك العزاز علينا

فأجابت هنا أقاموا قليلا   ثم راحوا ولست أعلم أينا

أو نواحا، ليس أكثر من نواح، أو وله وبكاء، كما قال شوقي:

عادت أغاني العرس رجع   ونعيت بين معالم الأفراح

١- من قصيدة أبي البقاء الراوندي يرثي بها الأندلس بعد سقوطها.

كفنت في ليل الزفاف بثوبه ودفنت عند تبلج الإصباح

شيعت من هلع بعبرة في كل ناحية وسكرة صاح

ضجت عليك مآذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزينة تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل والعراق أمحا من الأرض الخلافة ماح[1]

وماذا بعد البكاء والنواح، وهل يرجع النواح الذاهب؟؟؟

لم ندرس السنن التي آلت بنا إلى هذا المصير والنواميس التي انطبقت علينا كما انطبقت على غيرنا، بل قصرنا في علم السنن عامة والنظر في سنة الإهلاك والبقاء خاصة.

عالج صاحب المنار هذا الموقف للمسلمين من السنن بعد أن وقف عليه وأسى له فتأثر به فنراه يقول: (إن المسلمين لم يقصروا في شيء من علم الكتاب والسنة كما قصروا في بيان ما هدى إليه القرآن والحديث من سنن الله – تعالى- في الأمم، والجمع بين النصوص في ذلك، والحث على الاعتبار بها، ولو عنوا بذلك بعض عنايتهم بفروع الأحكام وقواعد الكلام لأفادوا الأمة ما يحفظ دينها ودنياها، وهو مالا يغنى عنه التوسع في دقائق مسائل النجاسة، والطهارة، والسلم،

١- الشوقيات ١٥٢/١، ط: شركة دار الأرقم، بيروت لبنان، بدون تاريخ بتقديم وتحقيق: د. عمر فاروق الطباع.

والإجارة؛ فإن العلم بسنن الله تعلى لا يعدله إلا العلم بالله – تعالى– وصفاته وأفعاله، بل هو منه، أو طريقه الموصل إليه)[1].

ويلفت صاحب المنار نظر الأمة إلى منهجية القرآن في تناول السنن حتى من خلال المحاور التي يسوقها تسرية وتسلية مثل القصص فيؤكد أن القصص لا يعنى بالتاريخ ولا يقف عند أحداثه وتفصيلاته إلا بالقدر الذي يخدم قضية يريدها وهدفا يسعى إليه،

فالعبرة من قصص القرآن العظة لا التاريخ:

القصة في القرآن الكريم لها أغراضها الراقية وأهدافها السامية وإذا عرضت للتاريخ لا تعرض له لذاته؛ بل لأنه سبيل إلى عبرة تريدها، أو هدف تتغياه، من هنا يؤكد صاحب المنار على هذه القضية التي دار حولها خلاف فيما بعد بين العلمانيين وغيرهم، واعتمد بعضهم على كلام صاحب المنار لكنه كان كمن قرأ (لا تقربوا الصلاة)، ووقف عليها، من هنا يعالج صاحب المنار هذه الجزئية فيقول:

(إِنَّهُ (القرآن) لَمْ يَقْصِدْ بِهَا التَّارِيخَ وَسَرْدَ الْوَقَائِعِ مُرَتَّبَةً بِحَسْبِ أَزْمِنَةِ وُقُوعِهَا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا الاعْتِبَارُ وَالْعِظَةُ بِبَيَانِ النِّعَمِ مُتَّصِلَةً بِأَسْبَابِهَا لِتُطْلَبَ بِهَا، وَبَيَانِ النِّقَمِ بِعِلَلِهَا لِتُتَّقَى مِنْ جِهَتِهَا، وَمَتَى كَانَ هَذَا هُوَ الْغَرَضُ مِنَ السِّيَاقِ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ تَرْتِيبُ الْوَقَائِعِ فِي

١ - انظر المنار ج٧ ص٤١٦.

الذِّكْرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذي يَكُونُ أَبْلَغَ فِي التَّذْكِيرِ وَأَدْعَى إِلَى التَّأْثِيرِ)[1].

الاعتبار بقصص القرآن:

ويدعو صاحب المنار المسلمين للاعتبار بقصص القرآن وهديه وأنه لم ينـــزل للتعبد بتلاوته فحسب وإن كانت تلاوته في ذاتها مطلوبة بقوله:

(وَإِذَا كُنَّا نَعْتَبِرُ بِمَا قَصَّ اللهُ - تَعَالَى - عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ: (**لقد كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ**) (يوسف: ١١١) فَإِنَّنَا نَعْرِفُ حُكْمَ أَهْلِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُ - تَعَالَى - مِمَّا ذَكَرَهُ عَنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، كَمَا نَعْرِفُهُ مِثْلَ قَوْلِهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: (**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**) (محمد: ٢٤) وَقَوْلِهِ: (**كِتَابٌ أَنــزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ**) (ص: ٢٩) فَكُلُّ هَذِهِ الآيَاتِ وَالْعِبَرِ لَمْ تَحُلْ دُونَ اتِّبَاعِ هَذِهِ الأُمَّةِ سَنَنَ مَنْ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ كَمَا أُنْبِئَتْ لِلتَّحْذِيرِ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهَا كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ))[2] وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَتْلُو أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْ هِدَايَتِهِ غَيْرُ مُعْتَبِرٍ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فَهُوَ كَالْمُسْتَهْزِئِ بِرَبِّهِ. سَأَلَ سَائِلٌ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ حَاضِرِي الدَّرْسِ بِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: إِنَّ

١- المنار: ٢٧١/١.

الْقُرْآنَ يُتَعَبَّدُ بتلاوَته، فَقَالَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ: نَعَمْ، وَلَكنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِنَّهُ أُنـــزِلَ لذَلكَ وَكَيْفَ يَقُولُونَ ذَلكَ، وَاللهُ الَّذي أَنـــزلَهُ يَقُولُ إِنَّهُ أَنـــزلَهُ: (**لِيَدَّبَّرُوا آيَاته وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَاب**) (ص: ٢٩)، فَالْقُرْآنُ وَكَذَلكَ السُّنَّةُ يُصَرِّحَان في مَوَاضعَ كَثيرَة بخلاف هَذَا الْقَوْل إِذَا أُخذَ عَلَى إِطْلاقه، وَجُعلَ مَعْنَاهُ – أَوْ منْ مَعْنَاهُ – أَنَّ اللهَ – تَعَالَى – يُطَالبُ عبَادَهُ بقرَاءَة الْقُرْآن بدُون تَدَبُّر وَلا تَذَكُّر. وَقَدْ جَاءَ منَ الأَحَاديث مَا يَصفُ حَالَ قَوْمٍ يَأْتُونَ بَعْدُ ((يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقيَهُمْ)) وَقَدْ سَمَّاهُمْ شرَارَ الْخَلْق، فَهَؤُلاء الأَشْرَارُ قَد اتَّخَذُوا الْقُرْآنَ منَ الأَغَاني وَالْمُطْرِبَات، وَإِذَا طَالَبْتَ أَحَدَهُمْ بالْفَهْم وَالتَّدَبُّر أَخَذَتْهُ الْعزَّةُ بالإِثْم وَاحْتَجَّ عَلَيْكَ بكَلمَة قَالَهَا فَلانٌ أَوْ حُلْمٍ رَآهُ فُلانٌ، وَهَكَذَا انْقَلَبَ عَلَى الْمُسْلمينَ، وَضْعُ الدِّين، ثُمَّ هُمْ يَتَعَجَّبُونَ مَعَ ذَلكَ كَيْفَ حُرمُوا منْ وَعْد الله في قَوْله: (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمنينَ**) (الروم: ٤٧) (**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْت آبَاءَهُمُ الأَوَّلينَ أَمْ لَمْ يَعْرفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكرُونَ**) (المؤمنون: ٦٨، ٦٩)، وَضَرَبَ الأُسْتَاذُ مَثَلاً رَجُلاً يُرْسلُ كتَابًا إِلَى آخرَ فَيَقْرَؤُهُ الْمُرْسَلُ إِلَيْه هَذْرَمَةً أَوْ يَتَرَنَّمُ به، وَلا يَلْتَفتُ إِلَى مَعْنَاهُ، وَلا يُكَلِّفُ نَفْسَهُ إِجَابَةَ مَا طَلَبَ فيه، ثُمَّ يَسْأَلُ الرَّسُولَ أَوْ غَيْرَهُ: مَاذَا قَالَ صَاحبُ الْكتَاب فيه، وَمَاذَا يُريدُ منْهُ؟ أَيَرْضَى الْمُرْسلُ منَ الْمُرْسَل إِلَيْه بهَذَا أَمْ يَرَاهُ اسْتهْزَاءً به؟ فَالْمَثَلُ ظَاهرٌ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ لا يُقَاسُ

عَلَى الْخَلْقِ، فَإِنَّ الْكِتَابَ لا يُرْسَلُ لأَجْلِ وَرَقِهِ، وَلا لأَجْلِ نُقُوشِهِ، وَلا لأَجْلِ أَنْ تُكَيِّفَ الأَصْوَاتُ حُرُوفَهُ وَكَلِمَهُ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ مُرَادَ الْمُرْسَلِ مِنْهُ وَيَعْمَلَ بِهِ.

(يقول الأُسْتَاذُ الإِمَامُ): إِنَّ الاسْتِهْدَاءَ بِالْقُرْآنِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، فَعَلَى كُلِّ قَارِئٍ أَنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ بِالتَّدَبُّرِ، وَأَنْ يُطَالِبَ نَفْسَهُ بِفَهْمِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَلا شَكَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ – وَلَوْ قَلِيلَةً – بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّهُ يَفْهَمُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا يَهْتَدِي بِهِ، وَمَنْ كَانَ أُمِّيًّا أَوْ أَعْجَمِيًّا فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْقَارِئِينَ أَنْ يَقْرَءُوا لَهُ الْقُرْآنَ وَيُفْهِمُوهُ مَعْنَاهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى هَذَا فِي مُقَدِّمَةِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ. بَلْ قَالَ الأُسْتَاذُ فِي هَذَا الْمَقَامِ: إِنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَوْ يَسْمَعَهُ كُلَّهُ، وَلَوْ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي عُمُرِهِ، وَمِنْ فَوَائِدِ ذَلِكَ أَنْ يَأْمَنَ مِنْ إِنْكَارِ شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَوْ سَمِعَهُ مَعَ التَّشْكِيكِ فِيهِ)[1].

إن الأمة في حاجة ماسة لمن يبصرها بأسباب هلاك الأمم الماضية حتى تتعظ بها وتعتبر بعبرها فالسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه.

* * *

١-٣٦٩/١، ٣٧٠.

المبحث الرابع
جهود المنار في بيان سنة الله في إهلاك الأمم

الناظر في تفسير المنار لأول وهلة يدرك عناية المنار وجهده في بيان السنن الربانية بصفة عامة، وسنة الله في إهلاك الأمم وبقائها بصفة خاصة، وما سنة الإهلاك إلا جزء من السنن العامة التي شغل بها صاحب المنار أيما شغل وأفردها في تفسيره أيما إفراد، ونظرة عجلى- فضلا عن المتأنية – إلى فهارس تفسير المنار تريك- بوضوح وجلاء جهود صاحب المنار في بيان هذه القضية، ويمكننا أن نرصد أدلة تلك الدعوى في نقاط نوجزها فيما يلي:

١- تعريف السنن لدى تفسير المنار:

من جهود صاحب تفسير المنار في بيان السنن وأهميتها تعريفه لها تعريفا يكشف عن وعيه بهذه القوانين الحاكمة والنواميس الماضية التي يخضع لها البشر كافة من غير محاباة ولا استثناء، فيقول: "السنن: جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة، والسيرة المتبعة، أو المثال المتبع، قيل إنها من سن الماء إذا والى صبه، فشبهت العرب الطريقة المتبعة بالماء المصبوب؛ فإنه لتوالى أجزائه على نهج واحد يكون كالشيء الواحد، وقد جاء ذكر السنن في مواضع من الكتاب العزيز كقوله في سياق

أحكام القتال وما كان في وقعة بدر: ﴿**قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِين**﴾[١]، وقوله في سياق أحوال الأمم مع أنبيائهم: ﴿**وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**﴾[٢]، وقوله في سياق دعوة الإسلام: ﴿**سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً**﴾[٣]، وقوله في مثل هذا السياق: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾[٤]، وصرح في سور أخرى كما صرح هنا بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول، كسورة بني إسرائيل، وسورة الأحزاب، وسورة الفتح[٥]"، ويعقب -رحمه الله - على هذا الاهتمام القرآني بالسنن ووردها فيقول: هذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم الله به الأديان"[٦].

١- الأنفال: ٣٨.
٢- الحجر: ١٣.
٣- الإسراء: ٧٧.
٤- فاطر: ٤٥
٥- تفسير المنار ج٤ ص/١١٥،١١٦، ٨/٣٠.
٦- السابق ج:٤ ص:١١٦.

٢- جوانب تطبيقية من علم السنن عند صاحب المنار:

وقد تناول السيد رشيد رضا جانبا تطبيقيا لهذا الاهتمام وظهر ذلك في عدد نبه عليها وتناول الحديث عنها ومن ذلك ما يلي:

١- سنة الله في إيتاء الملك ونـــزعه ٣/٢٢٢.

٢- سنة الله فيمن اتبع هواه وأخلد إلى شهواته ٩/٣٤١.

٣- سنة الله فيما يغفره ومالا يغفره ٥/١٢٢.

٤- سنة الله في الانتخاب الطبيعي ٨/٦.

٥- سنة الله في جعل العاقبة للمتقين ١٢/٢٠٠.

٦- سنة الله في عاقبة الجهل ٩/٣٧٧.

٧- سنة الله في وارثي الأمم وحالهم اليوم ٩/٤٨٣.

٨- سنة الله في إهلاك الأمم ١٢/٢٠٤.

٩- سنة الله في مكر أكابر المجرمين ٨/٢٩.

١٠- سنة الله في النصر ٢/٣٩٣.

١١- سنة الله في التدافع ٢/٣٩٤.

١٢- سنة الله في تمييز الخبيث من الطيب ٤/٢٠٨.

١٣- سنة الله في اختلاف الأمم ١٢/٢٠٥.

١٤- سنة الله في تنازع رجال المال ودعاة الإصلاح ١٢/٢٠.

١٥- سنة الله في ضلال الفاسقين ١/١٩٩.

١٦- سنة الله في إصلاح النفوس ٥٦/٣.

١٧- سنة الله في عاقبة الظلم ١٧/٣.

١٨- سنة الله في الهداية ٢٩٩/٣.

١٩- سنة الله فيمن لا تقبل توبتهم ٣٦٧/٤.

٢٠- سنة الله في الإملاء للكافرين ٢٣٧/٤.

٢١- سنة الله في التداول الحضاري ١٢١/٤.

٢٢- سنة الله في الأسباب والمسببات ١٧٩/٥.

٢٣- سنة الله في الجزاء ٣٤٣/٥.

٢٥- سنة الله في عقاب معاندي الرسل ٢٥٧/٧.

٢٦- سنة الله في المقلدين ٢٩٠/٧.

٢٧- سنة الله في السعادة والشقاوة ٢٢٣/٨.

٢٨- سنة الله في أكابر المجرمين مع المصلحين ٤/٨.

٢٩- سنة الله في السابقين إلى الإصلاح ٤٤٩/٨.

٣٠- سنة الله في سوء عاقبة الماكرين ٣٠/٨.

٣١- سنة الله في ولاية الظالمين بعضهم لبعض ٧٨/٨.

٣٢- سنة الله في عداوة شياطين الإنس والجن للرسل ٥/٨.

٣٣- سنن الله وحكمه في قصص الأنبياء ١٤/٩.

٣٤- سنة الله في أول من اتبع الأنبياء ٤١٠/١٠.

٣٥- سنن الله في الطبائع والغرائز ١٢/١٩٧.

٣٦- سنة الله في خلقه ٢/٧٣.

٣٧- سنة الله في الخير والشر٢/٢٢٥.

٣٨- سنة الله في عزة الأمم٢/٢١٩.

٣٩- سنة الله في نجاح الأعمال ٢/ ٣٠.

٤٠- سنة الله في الرزق٢/ ٢١٩.

٤١- سنة الله في إصلاح النفوس٣/ ٥٦.

٤٢- سنة الله في الهداية٣/ ٢٩٩.

٤٣- سنن الله في النعم والنقم٤/ ١٣٤.

٤٤- سنة الله في سعادة الدارين٤/١٢٦.

٤٥- سنة الله في مداولة الأيام٤/ ١٢١.

٤٦- سنة الله في المصائب٤/ ٢٨.

٤٧- سنة الله في موت المرء على ما عاش عليه ٤/ ١٧.

٤٨- سنن الله في تولي الصالحين ٤/١٤٥.

٤٩- سنن الله في الجزاء٤/١٧٨.

٥٠- سنن الله في عقاب الأمم٤/ ٢٤١.

٥١- سنة الله في الأفراد والجماعات ٨/٥.

٥٢- سنة الله في سوء عاقبة الماكرين ٨/ ٣٠.

٥٣- سنة الله في الأعمال والأعمار٨/ ٥١.
٥٤- سنن اله في التمييز بين الخبيث والطيب٩/٥٥١.
٥٥- سنن الله في استخلاف الأمم٩/ ٤٨١.
٥٦- سنن الله في حفظ الأمم من الهلاك بالإصلاح في الأرض ٩/ ٢٠.
٥٧- سنن الله في ضياع الممالك ٩/ ٤٨٢.
٥٨- سنة الله في عقاب الأمم ٩/ ٣١٨.
٥٩- سنة الله فيمن اتبع هواه وأخلد إلى الأرض ٩/ ٣٤٣.
٦٠- سنة الله في تمحيص الشدائد للبشر ١٠/ ١٨٤.
٦١- سنة الله في فتنة الأموال والأولاد ١٠/ ١١٦.
٦٢- سنن الله في أول من يتبع الأنبياء ١٠/ ٤١٠.
٦٣- سنن الله في تغيير أحوال الأمم ١٠/ ٣٣-٤١.
٦٤- سنن الله في تفاوت استعداد البشر ١٠/١٢١.
٦٥- سنة الله في ترتيب العمل على العلم١١/ ١٦٤.
٦٦- سنة الله في تربية الأمم والأفراد١١/ ١٦٤.
٦٧- سنن الله في العمران والاجتماع١٢/١٩٨.
٦٨- سنن الله في الطباع والغرائز١٢/ ١٩٧.
٦٩- سنن الله في التقدير والتكوين١٢/١٩٤.

وهذه الرؤوس الموضوعية غيض من فيض، وقل من كثر، مما سجله السيد رشيد رضا حول موضوع السنن، وقد حرصت علي جمع هذا الثبت بهذه الموضوعات؛ لأنها هي التي تصلح لأن تكون فكَرا مستقلة، أما حديثه عن السنن ومفهومها فأكثر من أن تحويه هذه الصفحات المعدودة، وتلك الكلمات المحدودة، وأرى في ذلك فرصة لأهيب بالباحثين والدارسين في مجال الدراسات القرآنية وعلوم الاجتماع البشري أن يمعنوا النظر في تفسير المنار والإفادة منه فهو — بحق – موسوعة اجتماعية إصلاحية من طراز فريد.

٣– وصف تفسير المنار وعلاقته بعلم السنن:

ومما يدل على اهتمام صاحب المنار بعلم السنن وصف تفسيره بهذا الوصف الذي يدل على عمق تناوله لعلم السنن، وأنه جانب مهم من جوانب عنايته، إذ يصفه السيد رشيد بقوله: "هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور، وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بحبلها، وهذه هي الطريقة التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيم الإسلام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده"[(١)] والذي ينظر في

١- صفحة الغلاف من كل أجزاء المنار.

هذا الوصف لتناول الأستاذ الإمام للتفسير يجد اهتمامه بعلم السنن، وتطبيقها علي المسلمين كان جانبا كبيرا من جوانب تفسيره، أخذ قدرا من دعوته الإصلاحية المرتكزة على القرآن الكريم وهداياته ويرى بحق صدق هذا الوصف الدقيق لعناية المنار وصاحبه بعلم السنن وتطبيقاتها على الواقع المعيش للأمة المسلمة.

٤- تفسير المنار وتناوله للسنن:

الناظر لأول وهلة لفهارس المنار يجد إلى أي مدى اعتنى الأستاذ الإمام وتلميذه بعلم السنن، فما نجد جزءا إلا وفيه قضية من قضايا السنن: شرحا لها، أو إرشادا إلى كيفية التعامل معها، أو إلماحا إلى إحسان توظيفها، بل لا أكون مبالغا إذا قلت: إنه لا تمر صفحة من صفحات المنار إلا وفيها حديث عن السنن، طويل أو قصير، إن دل هذا على شيء فإنما يدل على عناية الأستاذ الإمام بعلم السنن، ولفت أنظار المسلين إليه، وسنرى في هذه الدراسة ثبتا بأهم السنن التي استخرجها الأستاذ الإمام عند تناوله لتفسير آيات القرآن الكريم.

٥- الوقوف عند آيات السنن:

ومن جهود المنار في تبصير المسلمين بعلم السنن عامة وسنة الله في إهلاك الأمم خاصة والإفادة منه: أنه لا تمر به آية من القرآن يفسرها ولها بعلم السنن صلة إلا وينادي المسلمين لتفهمها، ويلفت نظـــرهم

إليها، ومن ذلك كلامه عند تناوله قوله - تعالى-: (**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ**)[1]، إذ يقول: (الخطاب موجه إلى الذين هداهم الله إلى السلم والخروج من ظلمة الخلاف إلى نور الكتاب، الذي أنزل لإزالته في زمن النزول، وفي كل زمن يأتي بعده وتوجيهه أولا وبالذات إلى أهل الصدر الأول من المسلمين، الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس، أكبر عبرة وموعظة لمن يأتي بعدهم، ويحسبون أنهم بمجرد الانتماء للإسلام يكونون أهلا لدخول الجنة، جاهلين سنة الله - تعالى- في أهل الهدى منذ خلقهم، وهي تحمل الشدائد والمصائب والضرر والإيذاء في طريق الحق وهداية الخلق، وعجيب من أمة ينطق كتابها بالآيات البينات على أن سنة الله في خلقه واحدة لا تحويل لها ولا تبديل، ويحثها دائما على الاعتبار بها والسير في الأرض لمعرفة آثارها في الأمم البائدة والأمم الحاضرة ثم هم يحولون هذه السنة عنهم، ويفشو فيهم الإنكار على من يعظهم بما حكى الله - تعالى- عن حال تلك الأمم التي كفرت بنعمة الله -

١- البقرة: ٢١٤.

تعالى- بالسلم والهداية، قائلين: إنه يقيس المسلمين على الكافرين[1]

صاحب المنار و دعوة المسلمين إلى فهم السنن:

عالج صاحب المنار هذه القضية في تفسيره من بدايته وفي أثنائه، ويؤكد أن القرآن يوجب علينا أن نجعل من هذه السنن علماً،كما يوجب علينا إدامة النظر لما فيها من الهداية على أكمل وجه، وأن ينتدب من الأمة من يرفع عنها كفاية هذا العلم ويزيل عنها إثم التقصير فيه، كما قاموا بذلك في علوم كثيرة تضخم بعضها على حساب غيره فيقول:

(إِنَّ إِرْشَادَ اللهِ إِيَّانَا إِلَى أَنَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ سُنَنًا يُوجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ هَذِهِ السُّنَنَ عِلْمًا مِنَ الْعُلُومِ الْمُدَوَّنَةِ لِنَسْتَدِيمَ مَا فِيهَا مِنَ الْهِدَايَةِ وَالْمَوْعِظَةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، فَيَجِبُ عَلَى الأُمَّةِ فِي مَجْمُوعِهَا أَنْ يَكُونَ فِيهَا قَوْمٌ يُبَيِّنُونَ لَهَا سُنَنَ اللهِ فِي خَلْقِهِ كَمَا فَعَلُوا فِي غَيْرِ هَذَا الْعِلْمِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي أَرْشَدَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ بِالإِجْمَالِ وَقَدْ بَيَّنَهَا الْعُلَمَاءُ بِالتَّفْصِيلِ عَمَلًا بِإِرْشَادِهِ، كَالتَّوْحِيدِ وَالأُصُولِ وَالْفِقْهِ. وَالْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ - تَعَالَى- مِنْ أَهَمِّ الْعُلُومِ وَأَنْفَعِهَا، وَالْقُرْآنُ سَجَّلَ عَلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ دَلَّنَا عَلَى مَأْخَذِهِ مِنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ إِذْ أَمَرَنَا أَنْ نَسِيرَ فِي الْأَرْضِ لِأَجْلِ اجْتِلَائِهَا وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهَا....، وَلَكَ أَنْ تُسَمِّيَهُ

١- المنار:٢/ ٢٣٨.

عِلْمَ السُّنَنِ الإِلَهِيَّةِ أَوْ عِلْمَ الاجْتِمَاعِ أَوْ عِلْمَ السِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ. سَمِّ بِمَا شِئْتَ فَلا حَرَجَ فِي التَّسْمِيَةِ)[1].

من هنا يظهر مدى حرص صاحب المنار على تعريف المسلمين بأهمية علم السنن ورد شبهة قد تطرأ على بعض الأذهان هي أن الصحابة لم يكونوا على معرفة بعلم السنن، ولم لم يدونوه، ومن دواعي تعلم المسلمين لعلم السنن وإفادتهم منه: أن السنن تتكرر إذا تكررت أسبابها،فتنطبق على كل فئة توفرت فيهم دواعيها، وتجري على كل لاحق مضى على منوال السابق، وهذه إحدى خصائص السنن التي لا تتغير ولا تتبدل.

ونجد صاحب المنار منذ بدايات تفسيره يلح على المسلمين في تفهم قضية السنن والنظر في أحوال البشر عامة ومن جرت عليهم السنن خاصة ليصلوا من خلال ذلك إلى (وعي يكون أساس السعي)، ومعرفة تعينهم على مواكبة النهضة الحضارية، وتقديم الشهادة الحقة على البشرية كما أراد الله – تعالى- لهم شهداء وشهودا يؤهلهم لمرحلة الريادة العامة والأستاذية للبشر.

وإذا قلبنا صفحات التفسير لدى صاحب المنار لنجدن اهتماما بالغا بسنة الله تعالى في إهلاك الأمم، بيانا لأسبابها، ووقوفا عندها،

١- المنار:٤/ ١١٤،١١٥بتصرف.

وإرشادا إليها، وتبصيرا للأمة بما يجب عليها نحو هذه السنة الماضية التي لا تتخلف ولا تتبدل.

ومن ذلك ما يلي:

بيانه لبعض مرادفات الإهلاك للأمم، فيذكر عند تناوله لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آَمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٤٧))[1] أن معنى اللعن هنا:الإهلاك، ويؤكد ذلك بنقله عن شيخه الأستاذ الإمام فيقول: وَقَالَ الْأُسْتَاذُ الإِمَامُ: وَرَدَّ فِي أَهْلُ السَّبْتَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَهُمْ، فَمَعْنَى اللَّعْنَة هُنَا الإِهْلاكُ بِقَرِينَة التَّشْبِيه وَبِه صَرَّحَ أَبُو مُسْلِمٍ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى اللَّعْنِ هُنَا عَذَابَ الآخرَة، وَالْمَعْنَى: آمِنُوا قَبْلَ أَنْ تَقَعُوا فِي إِحْدَى الْهَاوِيَتَيْنِ: الْخَيْبَة وَالْخذْلان، وَفَسَادُ الأَمْرِ وَذَهَابُ الْعزَّة بِاسْتِيلاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكُمْ - وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي طَائِفَة مِنْهُمْ أُجْلُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَخُذِلُوا فِي كُلِّ أَمْرِهِمْ - أَوِ الْهَلاكُ وَقَدْ وَقَعَ بِقَتْلِ طَائِفَة أُخْرَى وَهَلاكِهَا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً أَيْ: وَاقِعًا، أَيْ: شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ حَتْمًا، وَالْمُرَادُ هُنَا أَمْرُ التَّكْوِينِ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِقَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ: (**إِنَّمَا**

١- النساء: ٤٧.

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ (يس: ٨٢))[١].

فهو هنا يرى: أن الإهلاك قد يكون في الدنيا،وعليه تنطبق سنة الله- تعالى- في إهلاك الأمم، أو في الآخرة، ففي الدنيا يكون بفقد استقلالهم واستيلاء المؤمنين عليهم، أو بإهلاكهم حقيقة، وقد أيد الواقع والتاريخ سنة الله- تعالى- هذه فيمن عاند وأنكر حقية رسالة الرسول من اليهود.

وفي تفسيره لآية النساء: (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** (٥٨) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** (٥٩))[٢]، يبين أثر توسيد الأمر إلى غير أهله، ويضعه عنوانا لبيان أثره في إهلاك الأمم، ويبين أن المراد بالساعة هنا نهاية الأمة كما يقال دنت ساعة فلان أي دنا موته ونهايته، ويبين أثر ذلك في هلاك الأمم بقوله: (أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمَرْفُوعِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِذَا وُسِّدَ

١- المنار: ١١٩/٥.

٢- النساء: ٥٨، ٥٩.

الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِه فَانْتَظِرُوا السَّاعَةَ وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الأُسْتَاذَ الإِمَامَ، قَالَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالسَّاعَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ سَاعَةُ الأُمَّةِ الَّتِي تَقُومُ فِيهَا قِيَامَتُهَا أَيْ: تَدُولُ دَوْلَتُهَا عَلَى حَدِّ: مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، وَفِي "إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ": أَنَّ الْقِيَامَةَ قِيَامَتَانِ الْقِيَامَةُ الصُّغْرَى وَهِيَ قِيَامَةُ أَفْرَادِ النَّاسِ بِالْمَوْتِ، وَالْقِيَامَةُ الْكُبْرَى وَهِيَ قِيَامَتُهُمْ كُلِّهِمْ بِانْتِهَاءِ هَذَا الْعَالَمِ وَالدُّخُولِ فِي عَالَمِ الآخِرَةِ، وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ قِيَامَةَ الْجَمَاعَاتِ كَقِيَامَةِ الأَفْرَادِ، وَالتَّجَوُّزُ بِالسَّاعَةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَقْرَبُ إِلَى اللُّغَةِ مِنَ التَّجَوُّزِ بِلَفْظِ الْقِيَامَةِ ؛ فَإِنَّ الْقِيَامَةَ مِنَ الْقِيَامِ، وَهِيَ: (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) (المطففين: ٦)، وَأَمَّا السَّاعَةُ فَهِيَ الْوَقْتُ الْمُعَيَّنُ مُطْلَقًا، وَلا يَزَالُ النَّاطِقُونَ بِالْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ: جَاءَتْ سَاعَةُ فُلانٍ، أَوْ جَاءَ وَقْتُهُ، وَالْقَرِينَةُ تُعَيِّنُ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْوَقْتِ وَتِلْكَ السَّاعَةِ).

ويستدل على وجهة نظره برأي الراغب الأصفهاني في تقسيم الساعة إلى كبرى ووسطى وصغرى[1].

(وَإِنَّ خُرُوجَ أَمْرِ النَّاسِ مِنْ يَدِ أَهْلِهِ – الْقَادِرِينَ عَلَى الْقِيَامِ بِهِ كَمَا يَجِبُ – سَبَبٌ لِفَسَادِ أَمْرِهِمْ وَمُدْنٍ لِلسَّاعَةِ الَّتِي يَهْلِكُونَ فِيهَا بِالظُّلْمِ، أَوْ بِخُرُجِ الأَمْرِ مِنْ أَيْدِيهِمْ، ثُمَّ رَاجَعْتُ مُفْرِدَاتِ الرَّاغِبِ

١- انظر المفردات: مادة ساعة، ١/٢٨٨.

فَرَأَيْتُ لَهُ فِي تَفْسِيرِ السَّاعَاتِ تَقْسِيمًا ثُلاثِيًّا: السَّاعَةُ الْكُبْرَى بَعْثُ النَّاسِ لِلْحِسَابِ، وَالْوُسْطَى مَوْتُ أَهْلِ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ، وَالصُّغْرَى مَوْتُ الإِنْسَانِ الْوَاحِدِ، وَحُمِلَ عَلَى الأَخِيرِ بَعْضُ الآيَاتِ).

ثم يربط هذا البلاء بعدم العلم المؤدي إلى عدم الاختيار: (تَوْسِيدُ الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أَمْرَهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِاخْتِيَارِهَا، وَهِيَ عَالِمَةٌ بِحُقُوقِهَا قَادِرَةٌ عَلَى جَعْلِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا كِتَابُ اللهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يُسْلِبُهَا الْمُتَغَلِّبُونَ هَذَا الْحَقَّ بِجَهْلِهَا وَعَصَبِيَّتِهِمُ الَّتِي يَعْلُو نُفُوذُهَا نُفُوذَ أُولِي الأَمْرِ، حَتَّى لا يَجْرُؤَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَمْرٍ وَلا نَهْيٍ، أَوْ يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلسَّجْنِ أَوِ النَّفْيِ أَوِ الْقَتْلِ).

ويبين أن الواقع المعيش للمسلمين يؤكد هذا الرأي وتلك الوجهة: (هَذَا مَا كَانَ وَهَذَا هُوَ سَبَبُ سُقُوطِ تِلْكَ الْمَمَالِكِ الْوَاسِعَةِ، وَذَهَابِ تِلْكَ الدُّوَلِ الْعَظِيمَةِ وَوُقُوعِ مَا بَقِيَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ تَحْتَ وِصَايَةِ الدُّوَلِ الْعَزِيزَةِ، الَّتِي لَمْ تَعْتَزَّ وَتَقْوَ إِلاَّ بِجَعْلِ أَمْرِهَا بِيَدِ الأُمَّةِ، وَتَوْسِيدِ هَذَا الأَمْرِ إِلَى أَهْلِهِ، وَهُوَ هُوَ الَّذِي تَرَكَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ إِرْشَادِ دِينِهِمْ، وَمَا تَيَسَّرَ لَهُمْ تَرْكُ أُصُولِ الشُّورَى وَتَقْدِيسِ الْمُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ الْمُسْتَبِدِّينَ إِلاَّ فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ بَعْدَ أَنْ حَجَبُوا الأُمَّةَ عَنْ كِتَابِ رَبِّهَا وَسُنَّةِ نَبِيِّهَا فَجَهِلَتْ حُقُوقَهَا، ثُمَّ أَفْسَدُوا عَلَيْهَا بَعْضَ أُولِي الأَمْرِ مِنْهَا، وَأَسْقَطُوا قِيمَةَ الآخَرِينَ بِضُرُوبٍ مِنَ الْمَكَايِدِ الدِّينِيَّةِ

وَالدُّنْيَوِيَّةِ)[1].

وينبه صاحب المنار إلى العناية بالحق وعدم الغفلة عنه، وأثر ذلك في صيانة الأمة وعدم هلاكها، وما يؤدي إليه عدم حفظه وعدم النظر في حقيقته مبينا أنه كما يخشى على الحق من أعدائه يخشى عليه من أهله من جهة عدم إدراكه وحفظه، وما يترتب على ذلك من فقدان الأمة لمكانتها وبقاءها: (فَإِنَّ إِهْمَالَ الْعِنَايَةِ بِالْحَقِّ أَشَدُّ الْخَطَرَيْنِ عَلَيْهِ؛ لأَنَّهُ يَكُونُ سَبَبًا لِفَقْدِ الْعَدْلِ أَوْ تَدَاعِي أَرْكَانِه، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَى هَلاكِ الأُمَّةِ، وَكَذَلِكَ إِهْمَالُ غَيْرُ الْعَدْلِ مِنَ الأُصُولِ الْعَامَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الدِّينُ؛ فَالْعَدُوُّ لا يُمْكِنُهُ إِهْلَاكُ أُمَّةٍ كَبِيرَةٍ وَإِعْدَامُهَا، وَلَكِنَّ تَرْكَ الأُصُولِ الْمُقَوِّمَةِ لِلأُمَّةِ كَالْعَدْلِ، وَغَيْرِهِ يُهْلِكُ كُلَّ أُمَّةٍ تُهْمِلُهُ)[2].

ويبين رحمه الله أثر التفرق والخلاف في هلاك الأمم ومدى جريان السنة على من يقع في ذلك، ويعطي أمثلة من الواقع والتاريخ، مبينا أن الفرقة والتشرذم من ثارات الشيطان وخطواته، ويدعو الأمة إلى الحفاظ على وحدتها وسلامتها من الهلاك باتباع طريق الحق والوحدة فـــ: (طَرِيقُ الْحَقِّ هُوَ الْوَحْدَةُ وَالإِسْلامُ، وَطُرُقُ الشَّيْطَانِ هِيَ

١- المنار: ١٧٥/٥.
٢- المنار: ٣٢١/٥.

مُثَارَاتُ التَّفَرُّقِ وَالْخِصَامِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي كُلِّ الأُمَمِ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ يُزَيِّنُ طُرُقَهُ وَيُسَوِّلُ لِلنَّاسِ الْمَنَافِعَ وَالْمَصَالِحَ فِي التَّفَرُّقِ وَالْخِلافِ، فَقَدْ كَانَتْ يَهُودُ أُمَّةً وَاحِدَةً مُجْتَمِعَةً عَلَى كِتَابٍ وَاحِدٍ هُوَ صِرَاطُ اللهِ، فَسَوَّلَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَتَفَرَّقُوا وَجَعَلُوا لَهُمْ مَذَاهِبَ وَطُرُقًا، وَأَضَافُوا إِلَى الْكِتَابِ مَا أَضَافُوا، وَحَرَّفُوا مِنْ كَلِمِهِ مَا حَرَّفُوا، وَاتَّبَعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَتْ بِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ حَتَّى حَلَّ بِهِمُ الْهَلاكُ وَالدَّمَارُ، وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ وَكَذَلِكَ فَعَلَ غَيْرُهُمْ، كَأَنَّهُمْ رَأَوْا دِينَهُمْ نَاقِصًا فَكَمَّلُوهُ، وَقَلِيلاً فَكَثَّرُوهُ، وَوَاحِدًا فَعَدَّدُوهُ، وَسَهْلاً فَصَعَّبُوهُ، فَثَقُلَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فَوَضَعُوهُ، فَذَهَبَ اللهُ بِوَحْدَتِهِمْ حَتَّى لَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ كَثْرَتُهُمْ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمُ الأَعْدَاءَ، وَأَنــزلَ بِهِمُ الْبَلاءَ، (**سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**) (غافر: ٨٥).

هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فِي هَذَا الْمَقَامِ......، وَلِحِكْمَتِهِ قَدْ وَضَعَ تِلْكَ السُّنَنَ فِي الْخَلِيقَةِ، وَهَدَى إِلَيْهَا النَّاسَ بِمَا أَنــزلَ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ جَعَلَ لِكُلِّ ذَنْبٍ عُقُوبَةً، وَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ عَلَى ذُنُوبِ الأُمَمِ أَثَرًا مِنْ آثَارِهَا لازِمًا لَهَا حَتْمًا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: فَاعْلَمُوا أَنَّهُ يُحِلُّ بِكُمُ الْعِقَابَ؛ لأَنَّهُ عَزِيزٌ لا يُغْلَبُ عَلَى أَمْرِهِ، وَحَكِيمٌ لا يُهْمِلُ أَمْرَ خَلْقِهِ، وَلَكِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ أَبْلَغُ؛ لأَنَّهُ بَيَانٌ لِلْحُجَّةِ، وَتَقْرِيرٌ لِلْبُرْهَانِ بِالإِشَارَةِ إِلَى مُقَدِّمَاتِهِ اكْتِفَاءً بِهِ عَنْ ذِكْرِ النَّتِيجَةِ،

وَهُوَ مِنْ ضُرُوبِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الَّتِي لَمْ تُعْهَدْ فِي كَلامٍ إِنْسَانٍ)[1].

كما ينتصر لرأي شيخه في اختياره لمعنى الموت والحياة في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، بأن موتهم كان موتا معنويا، وحياتهم كانت حياة معنوية كذلك، وعلاقة ذلك بسنة الله في إهلاك الأمم، بأن: (وَإِطْلاقُ الْحَيَاةِ عَلَى الْحَالَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ فِي الأَشْخَاصِ وَالأُمَمِ، وَالْمَوْتِ عَلَى مُقَابِلِهَا مَعْهُودٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: (**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**) (الأنفال: ٢٤) وَقَوْلِهِ: (**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا**) (الأنعام: ١٢٢) الآيَةَ. وَانْظُرْ إِلَى دِقَّةِ التَّعْبِيرِ فِي عَطْفِ الأَمْرِ بِالْمَوْتِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الدِّيَارِ بِالْفَاءِ الدَّالَّةِ عَلَى اتِّصَالِ الْهَلاكِ بِالْفِرَارِ مِنَ الْعَدُوِّ، وَإِلَى عَطْفِهِ الإِخْبَارَ بِإِحْيَائِهِمْ بـــ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ عَلَى تَرَاخِي ذَلِكَ وَتَأَخُّرِهِ؛ وَلأَنَّ الأُمَّةَ إِذَا شَعَرَتْ بِعِلَّةِ الْبَلاءِ بَعْدَ وُقُوعِهِ بِهَا وَذَهَابِهِ بِاسْتِقْلالِهَا فَإِنَّهُ لا يَتَيَسَّرُ لَهَا تَدَارُكُ مَا فَاتَ إِلاَّ فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ، فَمَا قَرَّرَهُ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ هُوَ مَا يُعْطِيهِ النَّظْمُ الْبَلِيغُ وَتُؤَيِّدُهُ السُّنَنُ الْحَكِيمَةُ، وَأَمَّا الْمَوْتُ الطَّبِيعِيُّ فَهُوَ لا يَتَكَرَّرُ كَمَا عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ اللهِ وَمِنْ كِتَابِهِ إِذْ قَالَ: (**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ**

---

١ – المنار: ٢٠٧/١.

الأُولَى) (الدخان: ٥٦) وَقَالَ: (**وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ)** (غافر: ١١) وَلِذَلِكَ أَوَّلَ بَعْضُهُمُ الْمَوْتَ هُنَا بِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ السَّكْتَةِ وَالإِغْمَاءِ الشَّدِيدِ لَمْ تُفَارِقْ بِهِ الأَرْوَاحُ أَبْدَانَهَا، وَقَدْ قَالَ بَعْدَ مَا قَرَّرَهُ: هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ فَلا نُحَمِّلُ الْقُرْآنَ مَا لا يَحْمِلُ لِنُطَبِّقَهُ عَلَى بَعْضِ قِصَصِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يَقُلْ إِنَّ أُولَئِكَ الأُلُوفَ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ فِي الآيَاتِ الآتِيَةِ وَغَيْرِهَا، وَلَوْ فَرَضْنَا صِحَّةَ مَا قَالُوهُ مِنْ أَنَّهُمْ هَرَبُوا مِنَ الطَّاعُونِ، وَأَنَّ الْفَائِدَةَ فِي إِيرَادِ قِصَّتِهِمْ بَيَانُ أَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنَ الْمَوْتِ؛ لَمَّا كَانَ لَنَا مَنْدُوحَةٌ عَنْ تَفْسِيرِ إِحْيَائِهِمْ بِأَنَّ الْبَاقِينَ مِنْهُمْ تَنَاسَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَكَثُرُوا، وَكَانَتِ الأُمَّةُ بِهِمْ حَيَّةً عَزِيزَةً؛ لِيَصِحَّ أَنْ تَكُونَ الآيَةُ تَمْهِيدًا لِمَا بَعْدَهَا مُرْتَبِطَةً بِهِ، وَاللهُ تَعَالَى لا يَأْمُرُنَا بِالْقِتَالِ لأَجْلِ أَنْ نُقْتَلَ ثُمَّ يُحْيِينَا، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَبْعَثُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا بَعْدَ مَوْتِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)[1].

معقبا على ذلك ببيان سنة الله في بقاء الأمم وأسباب ذلك ببيان وجه الاتصال بين القصتين بأن: (وَجْهُ الاتِّصَالِ بَيْنَ آيَاتِ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَمَا قَبْلَهَا هُوَ أَنَّ الآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا نَـــزَلَتْ فِي شَرْعِ الْقِتَالِ لِحِمَايَةِ الْحَقِيقَةِ وَإِعْلاءِ شَأْنِ الْحَقِّ، وَبَذْلِ الْمَالِ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ، سَبِيلِ اللهِ لِعِزَّةِ الأُمَمِ وَمَنَعَتِهَا وَحَيَاتِهَا الطَّيِّبَةِ الَّتِي يَقَعُ مَنْ يَنْحَرِفُ عَنْهَا مِنَ

١- المنار: ٢/٢٦٣/٢٦٤.

الأَقْوَامِ فِي الْهَلاكِ وَالْمَوْت، كَمَا عُلِمَ مِنْ قِصَّةِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَارِّينَ مِنْ عَدُوِّهِمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ.

وَهَذِه الْقِصَّةُ - قِصَّةُ قَوْمٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - تُؤَيِّدُ مَا قَبْلَهَا مِنْ حَاجَةِ الأُمَمِ إِلَى دَفْعِ الْهَلاكِ عَنْهَا، فَهِيَ تُمَثِّلُ لَنَا حَالَ قَوْمٍ لَهُمْ نَبِيٌّ يَرْجِعُونَ إِلَيْه، وَعِنْدَهُمْ شَرِيعَةٌ تَهْدِيهِمْ إِذَا اسْتَهْدَوْا، وَقَدْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ بِالْقَهْرِ - كَمَا خَرَجَ أَصْحَابُ الْقِصَّة الأَوْلَى بِالْجُبْنِ - فَعَلِمُوا أَنَّ الْقِتَالَ ضَرُورَةٌ لا بُدَّ مِن ارْتِكَابِهَا مَا دَامَ الْعُدْوَانُ فِي الْبَشَرِ، وَبَعْدَ هَذَا كُلِّه جَبُنُوا وَضَعُفُوا عَنِ الْقِتَالِ فَاسْتَحَقُّوا الْخِزْيَ وَالنَّكَالَ، فَهَذِه الْقِصَّةُ الْمُفَصِّلَةُ فِيهَا بَيَانٌ لِمَا فِي تِلْكَ الْقِصَّة الْمُجْمَلَة: فَرَّ أُولَئِكَ مِنْ دِيَارِهِمْ فَمَاتُوا بِذَهَابِ اسْتِقْلالِهِمْ وَاسْتِيلاءِ الْعَدُوِّ عَلَى دِيَارِهِمْ.

فَالآيَةُ هُنَاكَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ مَوْتَهُمْ هَذَا سَبَبٌ عَنْ خُرُوجِهِمْ فَارِّينَ بِجُبْنِهِمْ، وَلَمْ تُصَرِّحْ بِسَبَبِ إِحْيَائِهِمُ الَّذِي تَرَاخَتْ مُدَّتُهُ، وَلَكِنْ مَا جَاءَ بَعْدَهَا مِنَ الأَمْرِ بِالْقِتَالِ وَبَذْلِ الْمَالِ الَّذِي يُضَاعِفُهُ اللهُ تَعَالَى أَضْعَافًا كَثِيرَةً قَدْ هَدَانَا إِلَى سُنَّتِه فِي حَيَاةِ الأُمَمِ[1].

ولصاحب المنار اختيار بديع وربط موضوعي رائق في بيان معنى المتقين والصالحين في قوله تعالى: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ**

١- المنار: ٢/٧٥،٢٧٦،

الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)[1]، وقوله تعالى: (**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)[2].

حين يبين أثر الملك في بقاء الأمم وفنائها، وأن، الملك إذا كان قويا في الخير كان سببا في سعادة أمته وبقائها، وإن كان قويا في الشر كان سببا في هلاكها وفنائها بأنه: (إِذَا أَرَادَ اللهُ إِسْعَادَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مُقَوِّيًا لِمَا فِيهَا مِنَ الاسْتِعْدَادِ لِلْخَيْرِ، حَتَّى يَغْلِبَ خَيْرُهَا عَلَى شَرِّهَا، فَتَكُونُ سَعِيدَةً، وَإِذَا أَرَادَ إِهْلاكَ أُمَّةٍ جَعَلَ مَلِكَهَا مُقَوِّيًا لِدَوَاعِي الشَّرِّ فِيهَا حَتَّى يَتَغَلَّبَ شَرُّهَا عَلَى خَيْرِهَا، فَتَكُونُ شَقِيَّةً ذَلِيلَةً، فَتَعْدُوا عَلَيْهَا أُمَّةٌ قَوِيَّةٌ، فَلَا تَزَالُ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا، وَتَفْتَاتُ عَلَيْهَا فِي أُمُورِهَا، أَوْ تُنَاجِزُهَا الْحَرْبَ حَتَّى تُزِيلَ سُلْطَانَهَا مِنَ الأَرْضِ، يُرِيدُ اللهُ تَعَالَى ذَلِكَ فَيَكُونُ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي نِظَامِ الاجْتِمَاعِ، فَهُوَ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنــزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ. بِعَدْلٍ وَحِكْمَةٍ، لا بِظُلْمٍ وَلا عَبَثٍ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) (الأنبياء: ١٠٥) وَقَالَ: (**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (الأعراف: ١٢٨) فَالْمُتَّقُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ – مَقَامِ اسْتِعْمَارِ

١- الأنبياء: ١٠٥.

٢- الأعراف: ١٢٨.

الأَرْضِ وَالسِّيَادَةِ فِي الْمَمَالِكِ - هُمُ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ خَرَابِ الْبِلادِ وَضَعْفِ الْأُمَمِ، وَهِيَ الظُّلْمُ فِي الْحُكَّامِ، وَالْجَهْلُ وَفَسَادُ الأَخْلاقِ فِي الدَّوْلَةِ وَالأُمَّةِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ التَّفَرُّقِ وَالتَّنَازُعِ وَالتَّخَاذُلِ، وَالصَّالِحُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لاسْتِعْمَارِ الأَرْضِ وَسِيَاسَةِ الأُمَمِ بِحَسَبِ اسْتِعْدَادِهَا الاجْتِمَاعِيِّ)[1].

وفي بيان سنن الله تعالى في إرث الأرض وهلاك الأمم وتكوينها وأثر الجمع بين آيات الكتاب العزيز في إظهار ذلك وبيانه، يذكر صاحب المنار عن شيخه وعيه بهذه القضية، واعتناءه بها بقوله: (وَكَانَ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ أَوْجَزَ فِي الدَّرْسِ بِتَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: (**وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**) إِذْ جَاءَ فِي آخِرِهِ، وَقَدْ كَتَبْتُ فِي مُذَكِّرَتِي عَنْهُ ((أَيْ: أَنَّهُ سُنَّةٌ فِي تَهْيِئَةِ مَنْ يَشَاءُ لِلْمُلْكِ)) وَمِثْلُ هَذَا الإِجْمَالِ لا يَعْقِلُهُ إِلاَّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ الآيَاتِ الْكَثِيرَةِ فِي إِرْثِ الأَرْضِ وَفِي هَلاكِ الأُمَمِ وَتَكَوُّنِهَا، وَالآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي أَنَّ لَهُ تَعَالى فِي الْبَشَرِ سُنَنًا لا تَتَبَدَّلُ وَلا تَتَحَوَّلُ وَقَدْ ذَكَرْنَا بَعْضَهَا، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: (**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) (١٣: ١١) فَحَالَةُ الأُمَمِ فِي صِفَاتِ أَنْفُسِهَا - وَهِيَ عَقَائِدُهَا وَمَعَارِفُهَا وَأَخْلاقُهَا وَعَادَاتُهَا - هِيَ الأَصْلُ فِي تَغَيُّرِ مَا بِهَا مِنْ سِيَادَةٍ أَوْ عُبُودِيَّةٍ وَثَرْوَةٍ أَوْ فَقْرٍ، وَقُوَّةٍ أَوْ

١- المنار: ٣٨٠/٢.

ضَعْف، وَهِيَ هِيَ الَّتِي تُمَكِّنُ الظَّالِمَ مِنْ إِهْلاكِهَا. وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْبَيَان أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ لا يَصِحُّ لَنَا الاعْتِذَارُ بِمَشِيئَةِ اللهِ عَنِ التَّقْصِيرِ فِي إِصْلاحِ شُئُونِنَا اتِّكَالاً عَلَى مُلُوكِنَا؛ فَإِنَّ مَشِيئَتَهُ تَعَالَى لا تَتَعَلَّقُ بِإِبْطَالِ سُنَّتِه تَعَالَى وَحِكْمَتِه فِي نِظَامِ خَلْقِه، وَلا دَلِيلَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلا فِي الْعَقْلِ وَلا فِي الْوُجُودِ عَلَى أَنَّ تَصَرُّفَ الْمُلُوكِ فِي الأُمَمِ هُوَ بِقُوَّةٍ إِلَهِيَّةٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ، بَلْ شَرِيعَةُ اللهِ تَعَالَى وَخَلِيقَتُهُ شَاهِدَتَان بِضِدِّ ذَلِكَ **(فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ)**(الحشر: ٢)[١][٢].

وكما هو بين من كلام صاحب المنار أنه لا يجوز لأمة أن تعتذر عن تقصيرها بالمشيئة الإلهية، فلا تعارض بين سنن الله تعالى في الحياة والأحياء وبين مشيئته فيهما، وأن المؤثر الأهم في تغيير الأمم وتبديل ما بها هو حالة الأمم نفسها وصفاتها النفسية التي تتغير فيتغير ما حولها.

ويبين أثر البذل والعطاء على مستوى الأمة في بقائها واستمرارها، وأثر البخل ومنع الحق في هلاكها وضياع أفرادها بـــ (أَنَّ أُمَّةً يُؤَدِّي أَغْنِيَاؤُهَا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ لِفُقَرَائِهَا وَلِمَصَالِحِهَا الْعَامَّةِ لا تَهْلَكُ وَلا

١- انظر: فقه السنن الربانية لدى الأستاذ الإمام محمد عبده، للباحث، ففيـــه مزيـــد بيان عن فقه العلاقة بين السنن الربانية والمشيئة الإلهية.
٢- المنار:٢/٣٨٠، ٣٨١.

تَخْزَى، وَلا شَيْءَ أَسْرَعُ فِي إِهْلاكِ الأُمَّةِ مِنْ فُشُوِّ الْبُخْلِ وَمَنْعِ الْحَقِّ فِي أَفْرَادِهَا)[1].

كما يبين أثر الظلم في هلاك الأمم وعذابها (بِأَنَّ اللهَ - تَعَالَى - تَوَعَّدَ عَلَى الظُّلْمِ بِالْهَلاكِ وَالْعَذَابِ كَمَا تَوَعَّدَ عَلَى الْكُفْرِ سَوَاءٌ كَانَا بِالْمَعْنَى الأَوَّلِ أَوِ الثَّانِي. قَالَ تَعَالَى: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ**) [إبراهيم: ٢٨ - ٣٠] الْوَعِيدُ الأَوَّلُ عَلَى كُفْرِ النِّعْمَةِ بِعَمَلِ السَّيِّئَاتِ وَتَرْكِ الأَعْمَالِ النَّافِعَةِ الصَّالِحَةِ، وَالْوَعِيدُ الثَّانِي عَلَى الشِّرْكِ وَكِلاهُمَا مِنْ وَعِيدِ الآخِرَةِ. وَقَالَ تَعَالَى: (**وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ**)[2]، وفي ذلك بيان لأثر الظلم وكفر النعم في وقوع سنة الله في هلاك الأمم.

(وَأَمَّا وَعِيدُ الظَّالِمِينَ بِعَذَابِ الدُّنْيَا كَهَلاكِ الأُمَّةِ فَكَثِيرٌ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى -: (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ**

١- المنار: ٣/١٧.
٢- المنار: ٣/١٨.

أَلِيمٌ شَدِيدٌ) [هود: ١٠٢]) ((قَالَ): تَرَى كَثِيرًا مِنْ أَغْنِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَارِفِينَ بِمَا عَلَيْهِ أُمَّتُهُمْ مِنَ الْجَهْلِ بِأُمُورِ الدِّينِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَفَسَادِ الأَخْلاقِ وَتَقَطُّعِ الرَّوَابِطِ وَتَرَاخِي الأَوَاخِي وَمَا نَشَأَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ هَضْمِ حُقُوقِهَا وَانْتِزَاعِ مَنَافِعِهَا مِنْ أَيْدِي أَبْنَائِهَا، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ إِصْلاحَهُمْ يَتَوَقَّفُ عَلَى بَذْلِ شَيْءٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ يُنْفَقُ عَلَى التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ هُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى بَذْلِ قَلِيلٍ مِنْ كَثِيرٍ مَا خَزَنُوهُ فِي صَنَادِيقِ الْحَدِيدِ وَمَا يُنْفِقُونَهُ فِي شَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَتَأْيِيدِ أَهْوَائِهِمْ وَحُظُوظِهِمْ فَيَبْخَلُونَ بِذَلِكَ وَيَرَوْنَهُ مَغْرَمًا ثَقِيلاً، وَلا يَحْلِفُونَ بِوَعْدِ اللهِ لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ وَلا وَعِيدِهِ لِلْبَاخِلِينَ بِفَضْلِهِ، وَأَمْثَالُ هَؤُلاءِ لا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لأَنَّهُ لا يُوجَدُ فِي نَفْسِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عِرْقٌ يَنْبِضُ فِي التَّأَلُّمِ لِمَصَائِبِ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ، فَمَنْ كَانَ يَرَى أَنَّ مَالَهُ أَفْضَلُ مِنْ دِينِهِ فِي الْوِجْدَانِ وَالْعَمَلِ، وَهَوَاهُ أَرْجَحُ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ حَقِيقَةً وَإِنْ سَمَّى نَفْسَهُ مُؤْمِنًا)[1].

ويبين أنواع الهلاك الذي تتضمنه سنة الله تعالى في الإهلاك وأن الله – تعالى– لا يهلك أمة بظلم منه لها، ولا بظلمها وهي غافلة، عند تناوله لقوله – تعالى–:

١– ٣/١٩:.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ إِتْيَانِ الرُّسُلِ يَقُصُّونَ عَلَى الأُمَمِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِي الإِصْلاحِ الرُّوحِيِّ وَالاجْتِمَاعِيِّ، وَيُنْذِرُونَهُمْ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ، بِسَبَبِ أَنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمَبْعُوثُ بِالإِصْلاحِ الأَكْمَلِ لِبَقِيَّةِ الأُمَمِ كُلِّهَا، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِ وَلا مِنْ سُنَنِهِ فِي تَرْبِيَةِ خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى أَيِ الأُمَمُ بِعَذَابِ الاسْتِئْصَالِ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ، وَلا بِعَذَابِ فَقْدِ الاسْتِقْلالِ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُخَالِفِي هِدَايَتِهِمْ بَعْدَ قَبُولِهَا بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهُمْ، أَوْ بِظُلْمٍ مِنْهُمْ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوا بِهِ هَذَا الْهَلاكَ، بَلْ يَتَقَدَّمُ هَلاكَ كُلِّ أُمَّةٍ إِرْسَالُ رَسُولٍ يُبَلِّغُهَا مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلاحِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضَائِلِ بِمَا يَقُصُّهُ عَلَيْهَا مِنْ آيَاتِ الْوَحْيِ فِي عَصْرِهِ، أَوْ بِمَا يَنْقُلُ إِلَيْهَا مَنْ يُبَلِّغُونَهَا دَعْوَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالدَّعْوَةِ الَّتِي تُنَبِّهُ أَهْلَ الْغَفْلَةِ، فَلا يَكُونُ أَخْذُهُمْ عَلَى غِرَّةٍ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي الأُمَمِ جَعْلَ جَمِيعِ مَا يَنـــزِلُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ جَزَاءً عَلَى عَمَلٍ اسْتَحَقُّوهُ بِهِ، فَيَكُونُ عِقَابُهُمْ تَرْبِيَةً لِمَنْ يُسْلِمُ مِنْهُمْ وَلِكُلِّ مَنْ عَرَفَ سُنَّةَ اللهِ فِي ذَلِكَ وَلِهَذَا عَبَّرَ بِلَفْظِ الرَّبِّ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ لَهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنَّهُ لا يَظْلِمُهُمْ شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ. وَأَنَّ الإِهْلاكَ وَالتَّعْذِيبَ لَيْسَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي لا بُدَّ مِنْ

وُقُوعِ مُتَعَلِّقِهَا سَوَاءٌ أَذْنَبَ الْمُكَلَّفُونَ أَمْ لَمْ يُذْنِبُوا، بَلْ هُوَ مِنْ أَفْعَالِهِ الَّتِي يُرَبِّي بِهَا عِبَادَهُ)[1].

وفي بيان سنة الله في إهلاك الأمم بسبب ظلمها لأنفسها يعرض صاحب المنار عند تناوله لآية:

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)[2].

ويذكر أن: هَذِهِ الآيَاتُ الثَّلاثُ مُؤَيِّدَةٌ لِلثَّلاثِ الَّتِي قَبْلَهَا وَمُتَمِّمَةٌ لِبَيَانِ الْمُرَادِ مِنْهَا. أَمَّا تِلْكَ فَبَيَانٌ لِحُجَّةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُكَلَّفِينَ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ فَجَحَدُوا بِهَا، وَتَقْرِيرٌ لَهُمْ يَشْهَدُونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ، وَأَنَّ عِقَابَهُمْ هُنَالِكَ حَقٌّ وَعَدْلٌ – وَبَيَانٌ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي إِهْلاكِ الأُمَمِ فِي الدُّنْيَا بِجِنَايَتِهَا عَلَى أَنْفُسِهَا لا بِظُلْمٍ مِنْهُ بَلْ بِظُلْمِهَا لأَنْفُسِهَا ظُلْمًا لا عُذْرَ لَهَا فِيهِ – وَبَيَانُ أَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ جَمَاعَاتٍ وَأَفْرَادٍ دَرَجَاتٌ فِي الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَحَاصِلُ الثَّلاثِ أَنَّ الأَعْمَالَ النَّفْسِيَّةَ وَالْبَدَنِيَّةَ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا

١- المنار: ٩٥/٨.

٢- الأنعام: ١٣٣-١٣٥.

الْجَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ (٨/٩٨))[١].

ويؤكد أن الهلاك للأمم نوعان صوري ومعنوي، ويؤكد ترتب هذا الهلاك على أفعال المكلفين، فيرى أن هذه الآيات الأخيرة: (فِي بَيَانِ عِقَابِ الأُمَمِ فِي الدُّنْيَا بِالْهَلاكِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ وَتَحْقِيقِ وَعِيدِ الآخِرَةِ، وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا مُرَتَّبًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ لا بِظُلْمٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَلا لِحَاجَةٍ لَهُ تَعَالَى فِيهِ لأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ، بَلْ هُوَ مَعَ كَوْنِهِ مُقْتَضَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، مَقْرُونٌ بِالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَهَاكَ تَفْصِيلُهُ بِالْقَوْلِ الْفَصْلِ.

خَتَمَ الآيَاتِ السَّابِقَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: **(وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)** أَيْ بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِهَا وَمُجَازٍ عَلَيْهَا وَبَدَأَ هَذِهِ بِقَوْلِهِ: **(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)** لإِثْبَاتِ غِنَاهُ تَعَالَى عَنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ وَالْعَامِلِينَ لَهَا وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَرَحْمَتِهِ فِي التَّكْلِيفِ)[٢].

ويستدل على أن المراد بالظلم في هذه الآيات هو الشرك بطريقة عقلية إضافة لما ثبت بالنقل[٣] بوروده في بيان سبب إهلاك القرى بقوله:

١- المنار: ٩٨/٨.
٢- المنار: ٩٩/٨.
٣- والحديث أخرجه البخاري باب ظلم دون ظلم، ١٥/١ ومسلم: باب ٥٦، صفة الإيمان، ١١٤/١.

(وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الآيَةِ أَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا صَحَّ تَفْسِيرُهُ فِيهَا بِالشِّرْكِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ – وَهُوَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ – لأَنَّهُ وَارِدٌ فِي الظُّلْمِ الَّذِي يُلْبَسُ بِهِ الإِيمَانُ فَصَحَّ فِيهِ الْعُمُومُ الْمُقَيَّدُ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ؛ لأَنَّ قَلِيلَ الشِّرْكِ يُفْسِدُ الإِيمَانَ كَكَثِيرِهِ. وَأَمَّا الظُّلْمُ فِي الآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا الآنَ وَفِي آيَةِ هُودٍ الْمُمَاثِلَةِ لَهَا فَقَدْ وَرَدَ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فِي مَقَامِ بَيَانِ سَبَبِ إِهْلاكِ الْقُرَى، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعُمُومُ فِيهِ مُطْلَقًا لِمَا ثَبَتَ فِي الآيَاتِ الأُخْرَى الْمُؤَيَّدَةِ بِوَقَائِعِ التَّارِيخِ مِنْ هَلَاكِ الأُمَمِ بِالظُّلْمِ فِي الأَعْمَالِ وَالأَحْكَامِ، وَبَقَائِهَا زَمَنًا طَوِيلاً مَعَ الشِّرْكِ إِذَا كَانَتْ مُصْلِحَةً فِيهِمَا كَمَا هُوَ ظَاهِرُ آيَةِ هُودٍ)[1].

ومن عناية صاحب المنار ببيان سنة الله في إهلاك الأمم وبقائها حديثه المؤكد والمكرر عن أنواع الإهلاك، ثم يضيف أيضا هنا إضافة بديعة إذ يذكر أن سنة الله في الاستئصال لمن كذب وعاند سنة خاصة انقطعت بانقطاع الأمم الماضية، وبقي هلاك الأمم بما يغلب عليها من الظلم والفسق والفجور.

(هَذَا وَإِنَّنَا قَدْ فَصَّلْنَا مِنْ قَبْلُ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا بِالإِجْمَالِ مِنْ أَنَّ عِقَابَ اللهِ تَعَالَى لِلأُمَمِ وَكَذَا لِلأَفْرَادِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْوَاعٌ، وَأَنَّ مِنْهُ مَا يُسَمَّى عَذَابَ الاسْتِئْصَالِ لِمَنْ عَانَدُوا الرُّسُلَ بَعْدَ أَنْ جَاءُوهُمْ

١- ٨/٩٥.

بِمَا اقْتَرَحُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَأَنْذَرُوهُمُ الْهَلاكَ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ تَأْيِيدِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِهَا كَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ، فَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَلِكَ خَاصَّةٌ وَقَدِ انْقَطَعَتْ بِانْقِطَاعِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِذْ لَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى سَائِرِ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ وَمِنْهُ هَلاكُ الأُمَمِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا مِنَ الظُّلْمِ أَوِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ الَّذِي يُفْسِدُ الأَخْلاقَ وَيَقْطَعُ رَوَابِطَ الاجْتِمَاعِ، وَيَجْعَلُ بَأْسَ الأُمَّةِ بَيْنَهَا شَدِيدًا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا اجْتِمَاعِيًّا لِسَلْبِ اسْتِقْلالِهَا وَذَهَابِ مُلْكِهَا بِحَسَبِ سُنَنِ الاجْتِمَاعِ، وَقَدْ أَنْذَرَنَا اللهُ هَذَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فَيُرَاجَعْ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى مِنَ التَّفْسِيرِ)[1].

من هنا نستطيع أن نقول – بحق-: إن صاحب المنار دعا المسلمين وألح في دعوتهم، وأرشدهم وصدق في إرشادهم، إلى النظر والتفكر في الكون وما فيه، وعلله وخوافيه، وما حدث لأهله، وما جرى عليهم من سنن الله – تعالى- ليقدموا للبشرية النموذج الصحيح والحكم الصادق من خلال سنن ثابتة لا تتغير ولا تتحول، وقد رصد أسباب هلاك الأمم وبقائها وسنة الله تعالى في ذلك وهذا ما سيبين في الصفحات التالية.

* * *

١- المنار: ٩٦/٨.

المبحث الخامس
أسباب هلاك الأمم في نظر صاحب المنار

سنة الله - تعالى- في إهلاك الأمم سنة واضحة بينة في القرآن الكريم، رصدها في كثير من الآيات، وتتبعها صاحب المنار في تفسيره، من خلال الآيات التي عرض لتناولها، والحديث عنها، والسنة لا تكون سنة بمعناها القرآني إلا إذا كانت لها أسباب مقدمات.

وقبل الحديث عن الأسباب نعرض لتعريف السبب فأقول:

السبب:

السبب هو الحبل، أو الطريق، أو ما يتوصل به إلى غيره، قال صاحب الأساس: (..... انقطع السبب أي الحبل. ومالي إليه سبب: طريق)[1].

والسبب في اللغة: اسم لما يتوصل به إلى المقصود، وفي الشريعة: عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه: الحبل)[2].

وقد سمى الله – تعالى- الحبل سببا في قوله – تعالى-: (**مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى**

١- أساس البلاغة – ج ١ / ص ٢٠٦، المزهر – ج ١ / ص ١٤٣.
٢- التعريفات – ج ١ / ص ٣٨.

السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥))[1].

ومن أسباب هلاك الأمم التي ذكرها القرآن، ورصدها صاحب المنار، ما يلي:

١- الظلم:

من أسماء الله – تعالى – العدل، سمى به نفسه، ودعا عباده إلى التحلي به، ونهاهم عن كل ما يحول بين الإنسان والعدالة، فنهاهم عن الظلم وأسبابه، وأمرهم بالعدل ومتطلباته، ونهى عن الظلم، وجعله سببا من أسباب هلاك الأمم، وزوال ملكها، وإن كانت مسلمة فقال تعالى: (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**)[2].

عالج السيد رشيد رضا هذه القضية في تفسيره وأبان خطر الظلم وأنه سبب من أسباب الهلاك في غير ما موضع من تفسيره إذ يقول عند تناوله قوله -تعالى-: (**ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ**)[3].

بعد أن عرض لقول الطبري (٣١٠/٢٢٤) وابن كثير

١- الحج: ١٤.
٢- هود: ١٧٧.
٣- الأنعام: ١٣٠

(٧٧٤/٧٠٠) في المراد من الظلم هنا: (ورد في هذا الموضوع عدة آيات، منها ما هو نص في إهلاك القرى بظلمها، ومنها ما هو بيان لسنته – تعالى– في ذلك كهذه الآية، ومن الأول قوله –تعالى– في سورة هود: (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**)[1]، ومن الثاني قوله فيها: (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**)[2]... ورجح أن المراد من الظلم هنا الظلم المعروف وهو وضع الشيء في غير موضعه بقوله: قد بينا في تفسير تلك الآية أن الظلم إنما صح تفسيره فيها بالشرك الذي هو أعظم الظلم — وهو نكرة في سياق النفي– لأنه وارد في الظلم الذي يلبس به الإيمان فصح فيه العموم المقيد الذي ورد فيه؛ لأن قليل الشرك يفسد الإيمان ككثيره. وأما الظلم في الآية التي نفسرها الآن وفي آية هود المماثلة لها فقد ورد نكرة في سياق النفي في مقام بيان سبب إهلاك القرى، فيجب أن يكون العموم فيه مطلقا لما ثبت في الآيات الأخرى المؤيدة بوقائع التاريخ من هلاك الأمم بالظلم في الأعمال والأحكام، وبقائها زمنا طويلا مع الشرك إذا كانت مصلحة فيهما كما هو ظاهر آية هود،... ومنه عذاب الله – تعالى– هلاك

١– هود: ١٠٢.

٢– هود: ١١٧.

الأمم بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق و الفجور الذي يفسد الأخلاق ويقطع روابط المجتمع، ويجعل بأس الأمة بينها شديدا فيكون ذلك سببا اجتماعيا لسلب استقلالها وذهاب ملكها حسب سنن الاجتماع وقد أنذرنا الله هذا في كتابه وعلى لسان رسوله)[1]، وعلى ذلك فالظلم سبب من أسباب هلاك الأمم كما بين ذلك القرآن وفسره صاحب المنار ولا ينكر صاحب المنار أن المراد من الظلم في بعض الآيات الشرك لدلالة السياق على ذلك وفي بعضها يدل على الظلم بمعناه العرفي.

ويؤكد على أن الظلم المهلك للأمم هو الذي يصر أصحابه عليه وليس أي ظلم ويبين ذلك في تناوله لآية الأعراف (**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** (١٦٣) **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** (١٦٤) **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** (١٦٥) **فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً**

١- المنار:٨/٩٥، ٩٦.

خَاسِئِينَ)[1]؛ إذ يقول: (أخذهم الله بعذاب بئيس بسبب فسقهم المستمر لا بظلمهم في الاعتداء في السبت فقط وذلك أن وصفهم بأنهم ظلموا تعليل لأخذهم بعذاب بئيس، بناء على قاعدة كون بناء الحكم أو الجزاء على المشتق يدل على أن المشتق منه علة له، ولكن الله - تعالى- لا يؤاخذ كل ظالم في الدنيا بكل ظلم يقع منه ولو كان قليلا في الصفة أو العدد- وإن شئت قلت في الكيف أو الكم- بدليل قوله: (**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ**)[2]، وقوله: (**وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**)، وإنما يؤاخذ الأمم والشعوب في الدنيا قبل الآخرة بالظلم والذنوب التي يظهر أثرها بالإصرار والاستمرار عليها)[3].

وفي تناوله لأصول السنن التي ضمنتها سورة الأعراف يقسم السنن إلى سنن في الخلق والتكوين وسنن في الاجتماع والعمران البشري، ويذكر أن أول أصل من أصول السورة في سنن الله — تعالى- في الاجتماع والعمران البشري إهلاك الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها، كما يتبين من قوله -تعالى-: (**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا**

١- الأعراف: ١٦٣/١٦٦.
٢- فاطر: ٤٥.
٣- المنار: ٣١٨/٩.

فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ)[١]، ومصداقه في خلق آدم الذي هو عنوان البشرية، وجعله – تعالى- المعصية بالأكل من الشجرة ظلما للنفس في قوله: (**وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**)[٢]، واعتراف آدم وحواء في دعاء توبتهما بذلك في قولهما: (**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا**)[٣]، وبأن شأن المعصية في الأفراد أن تغفر بالتوبة فيعفي عن عقابها، وهو خسران النفس كما في قولهما: (**وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**)[٤]، وأما خسارة الأمم فهي إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها. وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعي لازم للعمل، وأن ذنوب الأمم لابد من العقاب عليها في الدنيا قبل الآخرة)[٥].

ويقسم – رحمه الله – إهلاك الله للأمم بظلمها إلى نوعين فيقول: (أحدهما هو مقتضى سننه في نظام الاجتماع البشري وهي أن الظلم

١- الأعراف: ٤،٥.
٢- الأعراف: ١٩.
٣- الأعراف: ٢٣.
٤- الأعراف: ٢٣.
٥- المنار: ٩/٤٨٠.

سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القوية منها على الضعيفة استيلاء مؤقتا، إن كان إفساد الظلم لها عارضا لم يجهز على استعدادها للحياة واستعادتها للاستقلال كما في قوله - تعالى-: (**فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ**)[1] أو دائما إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة، كما في قوله: (**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ**)[2]، وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر، وهو قسمان ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق وظلم الحكام الذي يفسد الأمة في جملتها، وهذه السنة دائمة في الأمم، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها، هي آجالها المشار إليها في الآية ٤٩ وأمثالها، ثانيهما عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله-تعالى- فيها رسلها لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح، وأعظم أركانه العدل فعاندوا الرسل، فأنذروهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيء الآيات)[3].

٢- الغفلة عن أسباب الهلاك:

ومن أسباب هلاك الأمم وسنة الله فيها الغفلة عن أسباب هلاك

١- البقرة: ٢٤٣.
٢- الأنبياء: ١١.
٣- المنار ٢٥٨/١٠.

الأمم الماضية فإن الأمة التي تعتبر بمن سلف وتتقي الوقوع في مثل ما وقع فيه من غبر تقي نفسها من ورود نفس الورد، والسير على نفس الطريق المؤدي إلى الهلاك والبوار، وقد حفل القرآن الكريم بلفت أنظار الناس إلى السير والنظر في سنة الله في الماضين، والتعرف على أسباب أخذ الله لهم حتى يتقي اللاحق ما حدث للسابق، وهذا ما كثرت دعوة القرآن إليه سواء عن طريق الأمر المباشر (**سِيرُواْ**) (**انظُرُواْ**) أو الاستفهام: (**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**) (**أَوَلَمْ يَنظُرُواْ**)، (**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ**)... إلى غير هذا من الأوامر الكريمة واللفتات البديعة في القرآن الكريم...

يتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب هلاك الأمم عند تناوله لقوله تعالى: (**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** (٤٠) **بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** (٤١) **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** (٤٢) **فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (٤٣) **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ** (٤٤) **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ**

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥))[1]، فيقول: (معنى الآية: نقسم أننا قد أرسلنا إلى أمم من قبلك فدعوهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم، فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك معدا لهم للإيمان لما يترتب عليه – بحسب طبائع البشر– من التضرع والجؤار بالدعاء لربهم، إذ مضت سنتنا بجعل الشدائد مربية للناس بما ترجع المغرورين عن غرورهم، وتكلف الفجار عن فجورهم فما أجدرهم بإرجاع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر وما دونهم من من الأصنام ولكن من الناس من يصل إلى غاية من الشرك والفسق لا يزيلها بأس ولا يزلزلها بؤس، فلا تنفع معهم العبر ولا تؤثر فيهم الغير وكان أولئك الأقوام منهم،... فلما أعرضوا عما أنذرهم ووعظهم به الرسل، وتركوا الاهتداء به حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتعاظ به – لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم بلوناهم بالحسنات بما فتحنا عليهم من أبواب كل شيء من أنواع سعة الرزق ورخاء العيش وصحة الأجسام والأمن على الأنفس والأموال، كما قال الله – تعالى– في قوم موسى: (**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**)[2] فلم يتربوا بالنعم ولا شكروا المنعم، بل أفادتهم النعم

١– الأعراف: الآيات: ٤٠– ٤٥.

٢– الأعراف: ١٦٨.

فرحا وبطرا، كما أفادهم الشدائد قسوة وأشرا (**حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا**) منها، وفسقوا عن أمر رهم بطرا وغرورا بها (**أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**) أي: أخذناهم بعذاب الاستئصال حال كوننا مباغتين لهم أو حال كونهم مبغوتين إذ فجئهم على غرة من غير سبق أمارة ولا إمهال للاستعداد أو للهرب فإذا هم مبلسون أي: متحسرون يائسون من النجاة أو هالكون منقطعة حجتهم....

(**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) أي: والثناء الحسن في ذلك الذي جرى من نصر الله – تعالى- لرسله بإظهار حججهم، وتصديق نذرهم، وإهلاك المشركين الظالمين وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم، ثابت ومستحق لله رب العالمين المدبر لأمورهم المقيم لأمر اجتماعهم، بحكمته البالغة وسننه العادلة، فهذه الجملة بيان للحق الواقع من كون الحمد والثناء على ذلك مستحق لله – تعالى – وحده، وإرشاد لعباده المؤمنين، يذكرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين، وقطع دابر المفسدين)[1].

ويقول – وهو ينبه المسلمين إلى ضرورة الإفادة من سنن الله في الغابرين: (لقد أفاد غير المسلمين بما كتبه ابن خلدون في ذلك وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلوم التي سادوا بها على المسلمين الذين لم

١- تفسير المنار: ٧/٣٤٥-٣٤٧ بتصرف واختيار.

(يستفيدوا) منه كما كان يجب؛ لأنه كتب في طور تدليهم وانحطاطهم، بل لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا في إقامة أمر ملكهم وحضارهم على ما أرشدهم إليه من القواعد وسنن الله – تعالى- فيمن قبلهم...ولا يزالون معرضين عن هذا الرشد والهداية على شدة حاجتهم إليها بسبب ما وصل تنازع البقاء بين الأمم في هذا العصر)[١].

ويعلق على قوله – تعالى- (**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** (٤))[٢] فيقول: (فيه إيذان بأنه لا ينبغي للعاقل أن يأمن صفو الليالي ولا مواتاة الأيام، ولا يغتر بالرخاء فيعده آية على الاستحقاق له الذي هو مظنة الدوام، وقد يعذر بالغفلة قبل النذير، وأما بعده فلا عذر ولا عذير، وفيه تعريض بغرور كفار قريش بقوقم وثروقم وعزة عصبيتهم، وبما كانوا يزعمون أنها آية رضى الله عنهم (**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)[٣] وليس أمرهم بأعجب من الأقوام التي عرفت هداية القرآن أو سنن الله في نوع الإنسان، ثم هي تغتر بما هي عليه وإن

١- تفسير المنار: ٩٧/٨. بتصرف يسير.
٢- الأعراف: آية ٥.
٣- سبأ: ٣٥.

كان دليلا على الهلاك، ولا ترجع عن غيها حتى يأتيها العذاب)[1].

ويقول - رحمه الله- وهو يتناول تفسير سورة الفاتحة عند قوله - تعالى-: (**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** (٦) **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** (٧))[2]: (إن ثلاثة أرباع القرآن تقريبا قصص، وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم، في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع. فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد، ونظرنا في أحوال الأمم السالفة، وأسباب علمهم وجهلهم، وقوتهم وضعفهم، وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم - كان لهذا النظر أثر في نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم، فيما كان سبب السعادة والتمكن في الأرض، واجتناب سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار. ومن هنا ينجلي للعاقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات، وتأخذه الدهشة والحيرة إذا سمع أن كثيرا من رجال الدين من أمة هذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه، ويقولون: إنه لا حاجة إليه ولا فائدة له. وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو إليه هذا

١- تفسير المنار: ٨/ ٢٧٦.

٢- الفاتحة: ٦ ،٧.

الدين؟ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾[١][٢].

وعندما يتناول قضية التمكين لبني إسرائيل من خلال قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[٣]، يقول: (ترى شعوب المسلمين يجهلون هذه السنن الإلهية وما ضاع ملكهم وعزهم إلا بجهلها الذي كان سببا لعدم الاهتداء بها في العمل، وما كان سبب هذا الجهل إلا الإعراض عن القرآن، ودعوى الاستغناء عن هدايته بما كتبه لهم المتكلمون من كتب العقائد المبنية على القواعد الكلامية المبتدعة، وما كتبه الفقهاء من أحكام العبادات والمعاملات المدنية والعقوبات والحرب وما يتعلق بها... إن كتاب الإسلام هو المرشد الأول لسنن الاجتماع والعمران، ولكن المسلمين قصروا في طور حياتهم العلمية

١- الرعد: ٦.
٢- تفسير المنار: ١/٥٦.
٣- القصص: ٤، ٥.

عن تفصيل ذلك بالتدوين لعدم شعورهم بالحاجة إليه، وكان حقهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس علما؛ لأن كتاب الله مؤيد للحاجة بل الضرورة التي تدعو إليه)[1].

٣- هلاك الأمم بتكذيب الرسل:

أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وأيدهم بالحجج الباهرة والمعجزات الساطعة: (**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**)[2]، ومن رحمته بعباده أن جعل كل رسول يرسله بلسان قومه ليبين لهم: (**مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)[3]، ووردت الآيات الباهرات التي تؤكد أن هؤلاء الرسل بلغوا أقوامهم على أكمل وجه وأبينه وهو الذي سماه الله – تعالى- (**الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**)[4]، ولم تكن الأمم كلها على طريقة واحدة في قبول دعوة الرسل فمنهم من آمن واستجاب ومنهم من صد عن السبيل ووقف حائلا بين الناس ورسالات الله – تعالى-، وكذبوا المرسلين بشتى صور التكذيب من استهزاء وسخرية

١- تفسير المنار: ٩/٤٨٢،٤٨٣.
٢- النساء: ١٦٥.
٣- إبراهيم: ٤.
٤- المائدة: ٩٢.

إلى إيذاء وحرب، إلى رمي بالجنون وادعاء أن هذا أساطير الأولين، وغنى القرآن الكريم بتسجيل هذا التكذيب وتسجيل عقوبته التي حلت بأصحابه ومن ذلك قوله – تعالى-: (**ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ** (٣١) **فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** (٣٢) **وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ** (٣٣) **وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ** (٣٤) **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ** (٣٥) **هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ** (٣٦) **إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** (٣٧) **إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ** (٣٨) **قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ** (٣٩) **قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ** (٤٠) **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** (٤١) **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ** (٤٢) **مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** (٤٣) **ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ** (٤٤) **ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ** (٤٥) **إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ**

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ (٥٦))[1].

وقد حفلت سورة (المؤمنون) برصد هذا السنة من سنن الله – تعالى– في إهلاك الأمم بتكذيبها للرسل كما عنيت السور المكية خاصة بالحديث عن هذه السنة وعقاب الأمم المكذبة، ومن ذلك قوله – تعالى-: (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (١٥))[2]، وقوله – تعالى-:

١- المؤمنون: ٣١-٥٦.
٢- ص: ١٢-١٥.

(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ** (١٢) **وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ** (١٣) **وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ** (١٤) **أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ** (١٥))[1]، وتعددت الآيات الكريمة التي تثبت هذه السنة وهي إهلاك الأمم المكذبة لأقوامهم كما تعددت الآيات التي تثبت كثرة الطرق التي كذب بها الأقوام رسلهم من التكذيب الصريح إلى الاتهام بالسفاهة والضلال والسحر والجنون وإظهار الشك فيما جاء به المرسلون.

تناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب هلاك الأمم في غير مرة من تفسيره، فيقول وهو يتناول قوله – تعالى-: (**رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**)[2]، وقد ساق آيات مناظرة تدل على هلاك الأمم بتكذيبهم للرسل:(والمتبادر من الشواهد الأولى أنها في عذاب الدنيا سواء بالاستئصال أو فقد الاستقلال وهو المشار إليه بالهلاك، أو بما هو دون ذلك وهو المشار إليه بالمصيبة وأما الشاهد الأخير فيظهر أنه أعم.... والمتبادر من آية سورة الإسراء أنه ليس من شأن الله – تعالى- ولا من سنته أن يعذب

٢- ق: ١٢-١٥.

٢- النساء: ١٦٥.

الأمم التعذيب السماوي العام الذي عبر عنه بقوله: (**فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**)[1] إلا إذا أرسل إليهم رسولا فكذبوه، وسنته في هذا النوع مبينة في مواضع من الكتاب العزيز، فهو لا يأخذ به كل قوم كذبوا رسولهم، بل من أنذرهم العذاب فتماروا بالنذر، وتمادوا في عناد الرسل[2].

ويقول - رحمه الله- وهو يتناول صورة من صور التكذيب للرسل وهي الاستهزاء بهم عند تفسيره لقوله – تعالى-: (**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** (١٠) **قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**)[3]: بعد أن بين الله – تعالى- لخاتم رسله سنته في شبهات الكفار المعاندين على الرسالة، وإصرارهم على الجحود والتكذيب بعد إعطائهم الآيات التي كانوا يقترحونها، وعقابه – تعالى- إياهم على ذلك بين له شأنا آخر من شؤون أولئك الكفار مع رسلهم

١- العنكبوت: ٤٠.
٢- تفسير المنار: ٦/٦٠،٦١.
٣- الأنعام: ١٠، ١١.

وسنته – تعالى– فيهم....وفي الآية تعليم للنبي ﷺ، سنن الله في الأمم مع رسلهم وتسلية له عن إيذاء قومه، وبشارة بحسن العاقبة وما سيكون له من إدالة الدولة، وقد كان جزاء المستهزئين بمن قبله من الرسل عذاب الخزي بالاستئصال، ولكن الله كفاه المستهزئين به فأهلكهم، و لم يجعلهم سببا لهلاك قومهم، وامتن عليه بذلك في سورة الحجر إذ قال: (**إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** (٩٥) **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**)[1]... ولما كان أمر المستهزئين بالرسل يؤول إلى الهلاك بحسب سنة الله المطردة فيهم مما يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ، ولا يأخذون خبر الآية فيه بالتسليم أمر الله – تعالى–، رسوله بأن يدلهم على الطريق الذي يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال: (**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١١))، أي قل أيها الرسول للمكذبين بك من قومك الذين قالوا: (**لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ**): سيروا في الأرض كشأنكم وعادتكم، وتنقلوا في ديار أولئك القرون الذين مكناهم في الأرض ومكنا لهم ما لم نمكن لكم، ثم انظروا في أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك، وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم، وما تسمعون من أخبارهم، وإنما قال:

١– الحجر: ٩٥ ،٩٦.

(عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)، و لم يقل: عاقبة المستهزئين أو الساخرين، والكلام الأخير في هؤلاء لا في جميع المكذبين، وإن كان السبب المباشر للإهلاك اقتراح المستهزئين الآيات على الرسل، فلما أعطوها كذب بها المستهزئون المقترحون غيرهم من الكافرين الذين كانوا مشغولين بأنفسهم ومعايشهم عن مشاركة كبراء مترفيهم بالاستهزاء والسخرية، وإذا كان المكذبون قد استحقوا الهلاك وإن لم يستهزئوا و لم يسخروا فكيف يكون حال المستهزئين الساخرين؟ لا ريب أنهم أحق بالهلاك وأجدر؛ ولذلك أهلك الله المستهزئين من قوم نبي الرحمة و لم يجبهم إلى ما اقترحوه لئلا يعم شؤمهم سائر المكذبين معهم، ومنهم المستعدون للإيمان الذين اهتدوا من بعدهم)[١].

ويقول وهو يتحدث عن قوله – تعالى-: (لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)[٢]: كأن يبعث الله فيهم رسلا لهدايتهم فيردون دعوتهم كبرا وعنادا في الجحود ويقترحون عليهم الآيات فيعطونها مع إنذارهم بالهلاك إذا لم يؤمنوا بها، فيكذبون فيهلكون، وبهذا هلك أقوام نوح وعاد وثمود وفرعون وإخوان لوط وغيرهم. وهذا النوع من الهلاك كان خاصا بأقوام الرسل أولي الدعوة الخاصة لأقوامهم، وقد انتهى ببعثة صاحب

١- تفسير المنار: ٢٦٧/٧-٢٦٩، بتصرف يسير.
٢- الأنبياء: ١٠٧.

الدعوة العامة خاتم النبيين المخاطب بقوله-تعالى-: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**)[1] لكن انتهاءه عند الله لا يمنع جعله إنذارا لقومه خاصة بهلاكهم إن أعطوا إرضاء لعنادهم، ليعلم أهل البصيرة بعد ذلك أن منعهم إياه إنما كان رحمة بهم وبغيرهم، وقد مضت سنة الله في الأمم أن الجاحدين الذين يقترحون الآيات

لا يؤمنون به؛ ولأجل هذا لم يعط الله – تعالى – لرسوله شيئا مما كان يعطونهم منها... وهذا الأجل لم يكن يعلمه أحد إلا بعد أن بينه الله – تعالى– على ألسنة الرسل[2].

٤– هلاك الأمم بالأجل:

ورد في القرآن الكريم ما يفيد هلاك الأمم بالأجل في آيات كريمة كثيرة وهذا سبب من أسباب الهلاك ومن ذلك قوله – تعالى–: (**وَلِكُلِّ أُمَّة أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**)[3]، وقوله – تعالى-: (**أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوت السَّمَاوَات وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَد اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَديث بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ**)[4]، وقوله – تعالى–

١– الأنبياء: ١٠٧

٢– تفسير المنار: ٨/ ٣٥٨، وانظر ٧/٣٥٠.

٣– الأعراف:٣٤.

٤– الأنعام: ١٨٥.

(**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**)[1]، وقوله: (**وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)[2]، وقوله: (**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**)[3]، وتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب الهلاك للأمم في أكثر من موطن منها حديثه عن أصول سورة الأعراف في سنن الله – تعالى- في الاجتماع والعمران البشري فيقول في الأصل الثاني: (بيان أن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها وهو نص الآية ٣٤ وكونها إذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ بغتة وعلى غفلة ليلا أو نهارا، كما يؤخذ من الآيات ٩٤-١٠٠ وهذه الآيات وردت في عقاب الأمم التي عاندت الرسل وكان عقابها وضعيا لا اجتماعيا)[4]، وعند تناوله لقوله تعالى: (**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ**

١- الأنعام: ٢.
٢- الأنعام: ٦٠.
٣- الأنعام: ١٢٨
٤- تفسير المنار: ٩/٤٨٠.

يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)[1] يقول: (قل لهم يا محمد: لكل أمة أمد مضروب لحياتها، مقدر فيما وضع الخالق – سبحانه- من السنن لوجودها، وهو على نوعين: الأول أجل من يبعث الله فيهم رسلا لهدايتهم فيردون دعوتهم كبرا وعنادا في الجحود....والنوع الثاني: الأجل المقدر لحياة الأمم سعيدة عزيزة بالاستقلال، التي تنتهي بالشقاء والمهانة أو الاستعباد والاستذلال، إن لم تنته بالفناء والزوال، وهذا النوع منوط بسنن الله – تعالى- في الاجتماع البشري والعمران، وأسبابه محصورة في مخالفة هدي الآيات التي قبل هذه الآية، بالإسراف في الزينة والتمتع بالطيبات، وباقتراف الفواحش والآثام والبغي على الناس،وبخرافات الشرك والوثنية التي ما أنـــزل الله بها من سلطان، وبالكذب على الله بإرهاق الأمة بما لم يشرعه لها من أحكام...فما من أمة العزيزة السعيدة ارتكبت هذه الضلالات والمفاسد المبيدة إلا سلبها الله سعادتها وعزها وسلط عليها من استذلها وسلب ملكها)[2].

٥- هلاك الأمم بكفران النعم:

كفران النعم أو كفرها: هو سترها بترك أداء شكرها، وأكثر ما

١- الأعراف: ٣٤.
٢- تفسير المنار: ٣٥٨/٨، وانظر ج١١/ ٣٢١.

يستعمل لفظ الكفران في جحود النعم، أما لفظ الكفر فيكثر استعماله في الكفر المضاد للإيمان[1].

وقد عني القرآن الكريم بذكر هذا السبب من أسباب هلاك الأمم في غير ما موضع، ومن ذلك قوله – تعالى- (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)[2]، وقوله – تعالى-: (**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ**)[3]، وقوله – تعالى-: (**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ**

١- المفردات: مادة: كفر، ٧١٤/١، وانظر أسباب هلاك الأمم لسعيد محمد بابا سيلا ص:٣٦٥. رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: سلسلة الحكمة، ط: أولى.

٢- الأنعام: ٤٢-٤٥.

٣- القصص: ٥٨.

مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)[1]، وقوله – تعالى-: **(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)**[2]، قوله – جل شأنه-: **(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)**[3].

وقد عني صاحب المنار برصد هذا السبب من أسباب هلاك الأمم في تفسيره، وندب الأمة للإفادة منها، والوقوف على سنة الله فيها، فقال وهو يتناول سورة الأنعام: (والذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان: أحدهما معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به، وثانيهما كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة فهذا كله من الكفر بنعم الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والآيات الناطقة بتلك الذنوب مجتمعة ومتفرقة كثيرة.... والعذاب الذي يعذب الله به الأمم ويهلك

١- النحل: ١١٢، ١١٣.
٢ - الأنعام: ٦.
٣ - سبأ: ٤٥.

القرون، ويديل الدول قسمان أيضا: الجوائح والاستئصال، وفقد الاستقلال، وقد بينا هذا وذاك في مواضع من هذا التفسير، وفي هذه الآية رد على كفار مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف عصبية النبي ﷺ، وقد حكى الله – تعالى- عنهم ذلك بقوله: (**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**)[1].

٦- الترف:

ومن أسباب هلاك الأمم: انغماسها في الترف، ونسيانها المهمة الأساسية للمال، وعدم معرفتها: أن النعيم لا يدرك، بالنعيم وأن من طلب الراحة فاتته الراحة، يتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب الهلاك فيعلق على قوله – تعالى-: (**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** (١١٦) **وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**)[2] فيقول: (وَالْمُرَادُ مِنَ التَّحْضِيضِ فِي الآيَةِ الأُولَى النَّفْيُ؛ أَيْ: أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرُونِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَ ظُهُورِ الْسْلامِ بِالإِصْلاحِ الْعَامِّ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ مِنْ دِينِ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَوْ

١- سبأ: ٣٥.

٢- هود: ١١٦، ١١٧.

حُكَمَاءِ الْعُقَلاءِ، الَّذينَ فَسَّرَ بهِمُ الآمِرُونَ بالْعَدْلِ في قَوْلِه تَعَالَى: **(وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ)** (آل عمران: ٢١) وَلَكنْ لَمْ يَكُنْ ذَلكَ إلاَّ قَليلاً ممَّنْ أَنْجَيْنَا منْهُمْ، وَاتَّبَعَ الأَكْثَرُونَ مَا أُتْرِفُوا فيه منَ الشَّهَوَات وَاللَّذَّات، وَكَانُوا ظَالمينَ لأَنْفُسهمْ وَللنَّاس؛ أَيْ: أَزَالَ اللهُ مُلْكَهُمْ بظُلْمهمْ وَبَطَرهمْ وَتَرْكهمْ للإصْلاحِ في الأَرْضِ، قَالَ مُجَاهدٌ: في أَتْبَاعِ هَذَا الإتْرَاف في مُلْكهمْ وَتَجَبُّرهمْ وَتَرْكهمُ الْحَقَّ.

وَمَعْنَى الآيَة الثَّانيَة: أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ منْ شَأْن رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمُصْلحُ وَلا منْ سُنَّته في خَلْقه أَنْ يُهْلكَ الْعَوَاصمَ وَالْمَدَائنَ بظُلْمٍ منْهُ أَوْ بشرْكٍ منْ أَهْلهَا، وَالْحَالُ أَنَّهُمْ مُصْلحُونَ في أَحْكَامهمْ وَأَعْمَالهمْ، وَفي تَفْسيرِ الْمَرْفُوعِ إلَى النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ سُئلَ عَنْ قَوْله تَعَالَى: **(وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)** فَقَالَ: "وَأَهْلُهَا يُنْصفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا" رَوَاهُ الطَّبَرَانيُّ، وَأَبُو الشَّيْخِ، وَابْنُ مَرْدَوَيْه، وَالدَّيْلَميُّ، عَنْ جَرِيرٍ ﷺ مَوْقُوفًا أَيْضًا. وَهَؤُلاءِ الْبَقيَّةُ لا تَخْلُو منْهُمْ أُمَّةٌ فَهُمْ حُجَّةُ الله عَلَى الأَقْوَامِ، وَمَتَى قَلُّوا في أُمَّةٍ غَلَبَ عَلَيْهَا الْفَسَادُ، وَقَرُبَ انْتقَامُ الله منْهَا)[1].

ويقول رحمه الله تحت عنوان:

إهلاك الأمم باتباع المترفين وفقد الناهين عن الفساد:

١- المنار: ١٩/٩، ٢٠.

قوله (تعالى): (**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** (١١٦)).

(الْمَعْنَى: فَهَلاَّ كَانَ - أَيْ وُجِدَ - مِنْ أُولَئِكَ الأَقْوَامِ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَفَسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ، جَمَاعَةٌ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ مِنَ النَّهْيِ وَالرَّأْيِ وَالصَّلَاحِ يَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ، وَهُوَ الظُّلْمُ وَاتِّبَاعُ الْهَوَى وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تُفْسِدُ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَمَصَالِحَهُمْ، فَيَحُولُ نَهْيُهُمْ إِيَّاهُمْ دُونَ هَلاكِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِنَا أَلاَّ نُهْلِكَ قَوْمًا إِلاَّ إِذَا عَمَّ الْفَسَادُ وَالظُّلْمُ أَكْثَرَهُمْ، كَمَا يَأْتِي فِي الآيَةِ التَّالِيَةِ: - إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ - أَيْ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ مِنْ هَؤُلاءِ الْعُقَلاءِ الأَخْيَارِ، النَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ، الآمِرِينَ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَالِكَ قَلِيلٌ مِنَ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ، أَوْ هُمُ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ مَعَ الرُّسُلِ مِنْهُمْ، وَكَانُوا مَنْبُوذِينَ لا يُقْبَلُ نَهْيُهُمْ وَأَمْرُهُمْ، مُهَدَّدِينَ مَعَ رُسُلِهِمْ بِالطَّرْدِ وَالإِبْعَادِ، بَعْدَ الأَذَى وَالاضْطِهَادِ - وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا - وَهُمُ الأَكْثَرُونَ مِنْهُمْ - مَا أُتْرِفُوا فِيهِ - أَيْ: مَا رَزَقْنَاهُمْ وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ أَسْبَابِ التَّرَفِ وَالنَّعِيمِ فَبَطِرُوا.

يُقَالُ: أَتْرَفَتْهُ النِّعْمَةُ أَيْ أَبْطَرَتْهُ وَأَفْسَدَتْهُ، وَالْبَطَرُ: الطُّغْيَانُ فِي الْمَرَحِ وَخِفَّةِ النَّشَاطِ وَالْفَرَحِ - وَكَانُوا مُجْرِمِينَ - أَيْ: مُتَلَبِّسِينَ

بالإِجْرَامِ الَّذي وَلَّدَهُ التَّرَفُ رَاسخينَ فيه، فَكَانَ هُوَ الْمُسَخَّرُ لعُقُولهمْ فِي تَرْجيحِ مَا أَعْطَوْا منْ ذَلكَ عَلَى اتِّبَاعِ الرسل، رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْه فِي تَفْسيرِه عَنْ أُبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: أَقْرَأَني رَسُولُ الله ﷺ "أُولُو بَقيَّة وَأَحْلامٍ" وَالأَشْبَهُ عنْدي أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ – ذَكَرَ الأَحْلامَ تَفْسيرًا لا قُرْآنًا. وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعُقُولَ السَّليمَةَ الرَّشيدَةَ كَافيَةٌ لفَهْمِ مَا فِي دَعْوَةِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ منَ الْخَيْرِ وَالصَّلاحِ، لَوْ لَمْ يَمْنَعْ منِ اسْتعْمَالِ هدَايَتهَا الافْتتَانُ بالتَّرَف، وَالتَّفَنُّنُ في أَنْوَاعه، بَدَلاً منَ الْقَصْد وَالاعْتدَال فيه وَشُكْر الله الْمُنْعمِ به عَلَيْه، فَالإتْرَافُ هُوَ الْبَاعثُ عَلَى الإِسْرَاف وَالْفُسُوق وَالْعصْيَان، وَالظُّلْمُ وَالإِجْرَامُ يَظْهَرُ فِي الْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ، وَيَسْري بالتَّقْليد فِي الدَّهْمَاءِ، فَيَكُونُ سَبَبَ الْهَلَاك باسْتئْصَالٍ، أَوْ فَقْد الاسْتقْلَال، وَذَلكَ قَوْلُهُ – تَعَالَى –: (**وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفيهَا فَفَسَقُوا فيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْميرًا**) (الإسراء: ١٦).

وأما قوله (تعالى): (**وَمَا كَانَ رَبُّكَ ليُهْلكَ الْقُرَى بظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلحُونَ**) (هود: ١١٧).

فَهَذَا بَيَانٌ لسُنَّته – تَعَالَى – فِي الأُمَمِ قَديمهَا وَحَديثهَا، وَلا تُغْني عَنْ شُعُوب الإِفْرنْجِ مَعْرفَتُهُمْ بهَذه السُّنَّة وَمُحَاوَلَة اتِّقَائهَا لَهَا، فَحُكَمَاؤُهُمْ وَهُمْ أُولُو الْبَقيَّة وَالأَحْلامِ الَّذينَ يَنْهَوْنَهُمْ عَنِ الْفَسَاد فِي

الأَرْضِ، يُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُمْ سَيَهْلِكُونَ كَمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَهُمْ، وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ قُوَّتُهُمْ، بَلْ تَكُونُ هِيَ الْمُهْلِكَةُ لَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: (**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ**) (الأنعام: ٦٥) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا.

وَمِنْ عَجَائِبِ الْجَهْلِ وَالْغَيِّ، أَنَّ مُتَّبِعِي الإِتْرَافِ مِنْ شُعُوبِنَا يُقَلِّدُونَ الإِفْرِنْجَ فِي الإِسْرَافِ فِيهِ دُونَ مَا بِهِ يَرْجُو الإِفْرِنْجُ اتِّقَاءَ الْهَلاكِ مِنْ فَسَادِهِ، وَهُوَ الْقُوَّةُ الْحَرْبِيَّةُ وَفُنُونُ الصِّنَاعَةِ، فَإِذَا كَانَ فِسْقُ الإِتْرَافِ يُهْلِكُ الأُمَمَ الْقَوِيَّةَ، فَكَيْفَ تَبْقَى مَعَ اتِّبَاعِهِ وَفَسَادِهِ الأُمَمُ الضَّعِيفَةُ؟ وَكَيْفَ يَزُولُ وَالْمُتَّبِعُونَ لَهُ هُمُ الْمُلُوكُ وَالأُمَرَاءُ، وَالزُّعَمَاءُ وَالْحُكَّامُ، وَالْكُتَّابُ وَالْخُطَبَاءُ، وَهُمُ الأَكْثَرُونَ الظَّاهِرُونَ، وَالنَّاهُونَ عَنْ فَسَادِهِمُ الأَقَلُّونَ الْخَامِلُونَ؟)[1].

٧- الاستبداد:

خلق الله الإنسان حرا من عبودية من سواه، وجعل هذه الحرية - التي هي من أعظم نعمه على خلقه سبب تكليف الإنسان، ومدار الأمر والنهي، إذا زالت عنه زال عنه التكليف، وعبر الفقهاء عن ذلك (بعوارض الأهلية)، وذكروا منها الإكراه.

١- المنار:١٢/١٥٧- ١٥٩ بتصرف يسير.

كما أمره- تعالى- بالحفاظ على هذه الحرية والدفاع عنها وإن كلفه ذلك حياته وروحه، ذلك أن الإنسان لا يكون كامل الأهلية إلا بالحرية، ونهاه عن إزالة هذه الحرية عن نفسه أو قبول من يزيلها عنه، والاستبداد مزيل لحرية الناس فلا يوجد مستبد إلا على حساب مستعبد، ولا ترى تضخما لفرد إلا على حساب ضمور آخر فإن الله خلق الناس آحادا صحيحة فلا يوجد واحد ونصف إلا على حساب نصف آخر، وقد عالج صاحب المنار هذا السبب من أسباب الهلاك للأمم ويبين أثر ذلك على أخلاق الأمم والأفراد والشعوب عند تناوله لآيات كثيرة من آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله:

(إِنَّ الشُّعُوبَ الَّتِي تَنْشَأُ فِي مَهْدِ الاسْتِبْدَادِ، وَتُسَاسُ بِالظُّلْمِ وَالاضْطِهَادِ، تَفْسُدُ أَخْلاقُهَا، وَتَذِلُّ نُفُوسُهَا، وَيَذْهَبُ بَأْسُهَا، وَتُضْرَبُ عَلَيْهَا الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَتَأْلَفُ الْخُضُوعَ، وَتَأْنَسُ بِالْمَهَانَةِ وَالْخُنُوعِ، وَإِذَا طَالَ عَلَيْهَا أَمَدُ الظُّلْمِ تَصِيرُ هَذِهِ الأَخْلاقُ مَوْرُوثَةً وَمُكْتَسَبَةً حَتَّى تَكُونَ كَالْغَرَائِزِ الْفِطْرِيَّةِ، وَالطَّبَائِعِ الْخِلْقِيَّةِ. إِذَا أَخْرَجْتَ صَاحِبَهَا مِنْ بِيئَتِهَا وَرَفَعْتَ عَنْ رَقَبَتِهِ نِيرَهَا، أَلْفَيْتَهُ يَنْـزِعُ بِطَبْعِهِ إِلَيْهَا، وَيَتَفَلَّتُ مِنْكَ لِيَتَقَحَّمَ فِيهَا، وَهَذَا شَأْنُ الْبَشَرِ فِي كُلِّ مَا يَأْلَفُونَهُ، وَيَجْرُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَإِيمَانٍ وَكُفْرٍ، وَقَدْ ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَثَلاً لِهِدَايَتِهِ وَضَلالِ الرَّاسِخِينَ فِي الْكُفْرِ مِنْ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ:

"مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَيَجْعَلُ يَحْجِزُهُنَّ، وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجُزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا"[1] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

أَفْسَدَ ظُلْمُ الْفَرَاعِنَةِ فِطْرَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ، وَطَبَعَ عَلَيْهَا طَابَعَ الْمَهَانَةِ وَالذُّلِّ، وَقَدْ أَرَاهُمُ اللهُ تَعَالَى مَا لَمْ يُرِ أَحَدًا مِنَ الآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَصِدْقِ رَسُولِهِ مُوسَى عليه السلام، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَخْرَجَهُمْ مِنْ مِصْرَ لِيُنْقِذَهُمْ مِنَ الذُّلِّ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالْعَذَابِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ وَالاسْتِقْلالِ وَالْعِزِّ وَالنَّعِيمِ، وَكَانُوا عَلَى هَذَا كُلِّهِ إِذَا أَصَابَهُمْ نَصَبٌ أَوْ جُوعٌ أَوْ كُلِّفُوا أَمْرًا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ يَتَطَيَّرُونَ بِمُوسَى وَيَتَمَلْمَلُونَ مِنْهُ،...... وَكَانَ اللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لا تُطِيعُهُمْ نُفُوسُهُمُ الْمَهِينَةُ عَلَى دُخُولِ أَرْضِ الْجَبَّارِينَ، وَأَنَّ وَعْدَهُ تَعَالَى لأَجْدَادِهِمْ إِنَّمَا يتِمُّ عَلَى وِفْقِ سُنَّتِهِ فِي طَبِيعَةِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، إِذَا هَلَكَ ذَلِكَ الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَ فِي الْوَثَنِيَّةِ وَالْعُبُودِيَّةِ لِلْبَشَرِ وَفَسَادِ الأَخْلَاقِ، وَنَشَأَ بَعْدَهُ جِيلٌ جَدِيدٌ فِي حُرِّيَّةِ الْبَدَاوَةِ وَعَدْلِ الشَّرِيعَةِ وَنُورِ الآيَاتِ الإِلَهِيَّةِ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُهْلِكَ قَوْمًا بِذُنُوبِهِمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ حُجَّتَهُ

١- الحديث رواه البخاري: من حديث أبي هريرة، باب الانتهاء عن المعاصي برقم ٦١١٨، ٢٣٧٩/٥، ومسلم: باب شفقته على أمته، برقم ٦٠٩٧، ٦٤/٧.

عَلَيْهِمْ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَمْ يَظْلِمْهُمْ وَإِنَّمَا يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ، وَعَلَى هَذِهِ السُّنَّةِ الْعَادِلَةِ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِدُخُولِ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ بَعْدَ أَنْ أَرَاهُمْ عَجَائِبَ تَأْيِيدِهِ لِرَسُولِهِ إِلَيْهِمْ فَأَبَوْا وَاسْتَكْبَرُوا، فَأَخَذَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنْشَأَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ، جَعَلَهُمْ هُمُ الأَئِمَّةَ الْوَارِثِينَ، جَعَلَهُمْ كَذَلِكَ بِهِمَمِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْمُوَافِقَةِ لِسُنَّتِهِ وَشَرِيعَتِهِ الْمُنَـــزلَةِ عَلَيْهِمْ؛ فَهَذَا بَيَانُ حِكْمَةِ عِصْيَانِهِمْ لِمُوسَى بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، وَحِكْمَةِ حِرْمَانِ اللهِ تَعَالَى لِذَلِكَ الْجِيلِ مِنْهُمْ مِنَ الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ[1].

٩- فساد الأمم بعدم نهي العلماء:

ومن أسباب هلاك الأمم عدم نهي أولي النهى عن الفساد في الأرض، يقول الدكتور عبد الحليم عويس- وهو يشرح أسباب سقوط دولة المرابطين، وأن الفقهاء، الذين يتوجب عليهم أنهم أولوا حسبة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، إذا هم أبعد الناس عن فهم الصواب وأحرصهم على تكفير المجتمع حتى أعلامه وعلماؤه كأبي حامد الغزالي (٤٥٠/٥٠٥هـــ) الذي كفروه وأحرقوا كتابه الإحياء: (وقد أمات الفقهاء واجب "الحسبة" .. وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يقوموا بتغيير نواحي التحلل التي ظهرت في الدولة،

١- المنار: ٢٧٩/٦.

وكان بإمكانهم لتمكنهم من الحكم أن يقوموا على تغييرها.. لكنهم جاروا العامة في غرائزها وبحثوا عن أنفسهم، بل قاوموا المخلصين الذين حاولوا التغيير ورموهم بالتكفير والمروق .... وقد أمات الفقهاء واجب "الحسبة " .. وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يقوموا بتغيير نواحي التحلل التي ظهرت في الدولة، وكان بإمكانهم لتمكنهم من الحكم أن يقوموا على تغييرها .. لكنهم جاروا العامة في غرائزها وبحثوا عن أنفسهم، بل قاوموا المخلصين الذين حاولوا التغيير ورموهم بالتكفير والمروق.......)[١].

يتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب فناء الأمم وهلاكها، وذلك عند تناوله لقوله تعالى: (**لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**)، فيقول: (أيْ هَلاَّ يَنْهَى هَؤُلاءِ الْمُسَارِعِينَ فِيمَا ذَكَرَ أَئِمَّتُهُمْ فِي التَّرْبِيَةِ وَالسِّيَاسَةِ وَعُلَمَاءُ الشَّرْعِ وَالْفَتْوَى فِيهِمْ عَنْ قَوْلِ الإِثْمِ كَالْكَذِبِ، وَأَكْلِ السُّحْتِ كَالرِّشْوَةِ! لَبِئْسَ مَا كَانَ يَصْنَعُ هَؤُلاءِ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ مِنَ الرِّضَا بِهَذِهِ الأَوْزَارِ وَتَرْكِ فَرِيضَةِ الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ أَشَدُّ تَوْبِيخًا مِنْ هَذِهِ الآيَةِ؛ أَيْ فَهِيَ حُجَّةٌ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِذَا قَصَّرُوا فِي

١- دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، صـــ٧٠.

الْهِدَايَةِ وَالإِرْشَادِ، وَتَرَكُوا النَّهْيَ عَنِ الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ، وَإِذَا كَانَ حَبْرُ الأُمَّةِ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ هَذَا، فَمَا قَوْلُ عُلَمَاءِ السُّوءِ الَّذِينَ أَضَاعُوا الدِّينَ وَأَفْسَدُوا الأُمَّةَ بِتَرْكِ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ؟ وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّنَا نَقْرَأُ تَوْبِيخَ الْقُرْآنِ لِعُلَمَاءِ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْقُرْآنَ أُنــزِلَ مَوْعِظَةً وَعِبْرَةً، ثُمَّ لا نَعْتَبِرُ بِإِهْمَالِ عُلَمَائِنَا لأَمْرِ دِينِنَا، وَعِنَايَةِ عُلَمَائِهِمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِأَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ)[1].

* * *

١- المنار: ٦/٢٧٣.

المبحث السادس
أسباب بقاء الأمم

حفل القرآن الكريم - من خلال آياته الكريمة بالحديث عن أسباب بقاء الأمم واستمرارها، ودعا الناس لتأملها والإفادة منها،وذلك من خلال أمرهم بالسير في الأرض والتفكر فيما حل بأهلها، وما حدث لهم من مواقف وأحداث، ومن ذلك قوله — تعالى-:

١- (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ**

أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جالوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢))[١].

فقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أسباب بقاء الأمم

١- البقرة: ٢٤٣-٢٥٢.

وفنائها في خلاصات مركزة، وسنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، منها:

١- سنة الله في أن القلة العاملة خير من الكثرة النائمة.

٢ - سنة الله في القلة والكثرة.

٣- سنة الله في القبض والبسط.

٤- سنة الله في أن أكثر الناس لا يعلمون.

٥- سنة الله في أن الصابرين في كل أمر قلة.

٦- سنة الله في تنازع أهل المال ودعاة الدين والإصلاح.

٧- سنة الله في أن النبوة اصطفاء واجتباء.

٨- سنة الله في أن مؤهلات القيادة البسطة في العلم والجسم.

٩- سنة الله في تأييده أنبياءه بالمعجزات.

١٠- سنة الله في أن النصر على النفس أول مراحل النصر على العدو.

١١- سنة الله في أن إيتاء الله الملك والحكمة والتعليم لا يكون إلا بعد الأخذ بالأسباب وبذل غاية الجهد.

١٢- سنة الله في كونه مع الصابرين.

١٣- سنة الله في التدافع.

وهذه الآيات الكريمة من أجمع الآيات في سنن البقاء والفناء، فقد حفلت كما رأينا بهذا الحشد الهائل من السنن التي يرتبط بعضها

ببعض ويؤدي بعضها إلى بعض.

وقد استخرج صاحب المنار عددا من السنن الربانية من خلال هذه الآيات الكريمة جديرة بالوقوف عندها والإفادة منها، وعنون لها بقوله: (السُّنَنُ الاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ وَالأُمَمِ وَالاسْتِقْلالِ) أَذْكُرُ مَا يَظْهَرُ لِي مِنَ السُّنَنِ وَالأَحْكَامِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي آيَاتِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُفَصَّلَةً مَعْدُودَةً لَعَلَّهَا تُوعَى وَتُحْفَظُ فَلا تُنْسَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى:

(**السُّنَّةُ الأُولَى**): أَنَّ الأُمَمَ إِذَا اعْتُدِيَ عَلَى اسْتِقْلالِهَا وَأَوْقَعَ الأَعْدَاءُ بِهَا فَهَضَمُوا حُقُوقَهَا تَتَنَبَّهُ مَشَاعِرُهَا لِدَفْعِ الضَّيْمِ وَتُفَكِّرُ فِي سَبِيلِهِ، فَتَعْلَمُ أَنَّهَا الْوَحْدَةُ الَّتِي يُمَثِّلُهَا الزَّعِيمُ الْعَادِلُ وَالْقَائِدُ الْبَاسِلُ، فَتَتَوَجَّهُ إِلَى طَلَبِهِ حَتَّى تَجِدَهُ كَمَا وَقَعَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ تَنْكِيلِ أَهْلِ فِلَسْطِينَ بِهِمْ.

(**الثَّانِيَةُ**) أَنَّ شُعُورَ الأُمَّةِ بِوُجُوبِ حِفْظِ حُقُوقِهَا وَصِيَانَةِ اسْتِقْلَالِهَا إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَكَمَالِهِ فِي خَوَاصِّهَا، فَمَتَى كَثُرَ هَؤُلاءِ الْخَوَاصُّ فِي أُمَّةٍ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ الرَّئِيسَ الَّذِي يُمَلَّكُ عَلَيْهِمْ، كَمَا عَلِمْتَ مِنْ إِسْنَادِ طَلَبِ الْمُلْكِ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ شُيُوخُهُمْ وَأَهْلُ الْفَضْلِ فِيهِمْ.

(**الثَّالِثَةُ**) مَتَى عَظُمَ الشُّعُورُ فِي نُفُوسِ خَوَاصِّ الأُمَّةِ بِوُجُوبِ حِفْظِ اسْتِقْلالِهَا وَدَفْعِ ضَيْمِ الأَعْدَاءِ عَنْهَا فَإِنَّهُ لا يَلْبَثُ أَنْ يَسْرِيَ إِلَى

عَامَّتِهَا، فَيَظُنُّ النَّاقِصُ أَنَّ عِنْدَهُ مِنَ النَّعْرَةِ وَالْحَمِيَّةِ لِلأُمَّةِ مَا عِنْدَ الْكَامِلِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ مِنْ طَوْرِ الْفِكْرِ وَالشُّعُورِ إِلَى طَوْرِ الْعَمَلِ وَالظُّهُورِ انْكَشَفَ عَجْزُ الأَدْعِيَاءِ الْمُدَّعِينَ، وَلَمْ يَنْفَعْ إِلاَّ صِدْقُ الصَّادِقِينَ، كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**) (البقرة: ٢٤٦).

(**الرَّابِعَةُ**) أَنَّ مِنْ شَأْنِ الأُمَمِ الاخْتِلافَ فِي اخْتِيَارِ الرَّئِيسِ الَّذِي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْهَا، وَالاخْتِلافُ مَدْعَاةُ التَّفَرُّقِ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ مُرَجِّحٌ يَقْبَلُهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الأُمَّةِ؛ لِذَلِكَ لَجَأَ الْمَلأُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى نَبِيِّهِمْ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَخْتَارَ لَهُمْ رَجُلاً يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْهِمْ....

(**الْخَامِسَةُ**) أَنَّ النَّاسَ لا يَتَّفِقُونَ عَلَى التَّقْلِيدِ أَوِ الاتِّبَاعِ فِيمَا يَرَوْنَهُ مُخَالِفًا لِمَصْلَحَتِهِمُ الاجْتِمَاعِيَّةِ؛ وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى نَبِيِّهِمْ فِي جَعْلِ طَالُوتَ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِمَا لا يَنْهَضُ حُجَّةً إِلاَّ فِي ظَنِّ الْمُنْكِرِينَ. وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِ النَّاسِ أَنَّ كُلاًّ مِنْهُمْ يَحْسَبُ أَنَّهُ يَعْرِفُ الصَّوَابَ فِي السِّيَاسَةِ وَنِظَامِ الاجْتِمَاعِ فِي الأُمَمِ وَالدُّوَلِ،....

(**السَّادِسَةُ**) أَنَّ الأُمَمَ فِي طَوْرِ الْجَهْلِ تَرَى أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْمُلْكِ وَالزَّعَامَةِ أَصْحَابُ الثَّرْوَةِ الْوَاسِعَةِ كَمَا عُلِمَ مِنْ قَوْلِ الْمُنْكِرِينَ عَلَى

مُلْك طَالُوتَ فِي تَأْيِيد إِنْكَارِهِمْ (**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ**) وَأَصْحَابُ الأَنْسَاب الشَّرِيفَة، كَمَا عُلِمَ مِمَّا فَسَّرَ بِهِ الْعُلَمَاءُ قَوْلَهُمْ لَهُ: (**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْك مِنْهُ**) فَهَذَا الاعْتِقَادُ مِنَ السُّنَنِ الْعَامَّة فِي الأُمَمِ الْجَاهِلَة خَاصَّةً، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي تَخْضَعُ لأَصْحَاب الْعَظَمَة الْوَهْمِيَّة، وَهِيَ الَّتِي لَيْسَتْ صِفَةً لِنَفْسِ صَاحِبِهَا كَالْمَال وَالانْتِسَاب إِلَى بَعْضِ الْعُظَمَاءِ فِي عُرْفِهِمْ، سَوَاءً كَانَتْ عَظَمَتُهُمْ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ. هَذَا مَوْضِعُ الْخَطَأ فِي تَعْظِيمِ ذِي النَّسَب، وَيَشْتَدُّ خَطَرُهُ إِذَا صَارَ الأَنْسَابُ يَسْتَعْلُونَ عَلَى النَّاسِ بِأَنْسَابِهِمْ دُونَ عُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ وَجْهُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِالْمُلْك....

(**السَّابِعَةُ**) أَنَّ الشُّرُوطَ الَّتِي تُعْتَبَرُ فِي اخْتِيَارِ الرَّجُلِ فِي الْمُلْك هِيَ مَا اسْتَفَدْنَاهُ مِنْ قَوْلِه تَعَالَى: (**إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**) الآيَةَ..

(**الثَّامِنَةُ**) هِيَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (**وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ**) كَمَا بَيَّنَاهُ مُعَزَّزًا بِالشَّوَاهِد مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، عَلَى أَنَّ مَشِيئَتَهُ تَعَالَى إِنَّمَا تَنْفُذُ بِمُقْتَضَى سُنَنِه الْعَامَّة فِي تَغْيِيرِ أَحْوَالِ الأُمَمِ بِتَغْيِيرِهِمْ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَفِي سَلْبِ مُلْك الظَّالِمِينَ وَإِيرَاث الأَرْضِ لِلصَّالِحِينَ، وَتَأْوِيلُ هَذِه الآيَات وَأَمْثَالِهَا مُشَاهَدٌ فِي كُلِّ زَمَان، وَأَيْنَ الْمُبْصِرُونَ؟! (**أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ**

الْغَالِبُونَ﴾ (٢١: ٤٤) أَوْ لَمْ يَسْمَعُوا دَعْوَةَ الأَنْبِيَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ**﴾ (الشعراء: ١٥٠ – ١٥٢)...

(**التَّاسِعَةُ**) أَنَّ طَاعَةَ الْجُنُودِ لِلْقَائِدِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ شَرْطٌ فِي الظَّفْرِ وَاسْتِقَامَةِ الأَمْرِ، وَقَوَانِينُ الْجُنْدِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى طَاعَةِ الْجَيْشِ لِقُوَّادِهِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالْمَعْقُولِ وَغَيْرِ الْمَعْقُولِ، فَإِذَا أَمَرَ الْقَائِدُ بِتَسْلِيمِ الدِّيَارِ أَوِ الأَمْوَالِ أَوِ الأَنْفُسِ لِلأَعْدَاءِ وَجَبَ تَسْلِيمُهَا فِي قَانُونِ كُلِّ دَوْلَةٍ...

(**الْعَاشِرَةُ**) أَنَّ الْفِئَةَ الْقَلِيلَةَ قَدْ تَغْلِبُ – بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ وَطَاعَةِ الْقُوَّادِ – الْفِئَةَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي أَعْوَزَهَا الصَّبْرُ وَالاتِّحَادُ، مَعَ طَاعَةِ الْقُوَّادِ؛ لأَنَّ نَصْرَ اللهِ مَعَ الصَّابِرِينَ؛ أَيْ جَرَتْ سُنَّتُهُ بِأَنْ يَكُونَ النَّصْرُ أَثَرًا لِلثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ، وَأَنَّ أَهْلَ الْجَزَعِ وَالْجُبْنِ هُمْ أَعْوَانٌ لِعَدُوِّهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَهُوَ كَثِيرٌ لا مُطَّرِدٌ كَمَا جَاءَ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

(**الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ**) أَنَّ الإِيمَانَ بِاللهِ تَعَالَى وَالتَّصْدِيقَ بِلِقَائِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاقِفِ الْجِلادِ؛ فَإِنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ إِلَهًا غَالِبًا عَلَى أَمْرِهِ يَمُدُّهُ بِمَعُونَتِهِ الإِلَهِيَّةِ كَمَا أَمَدَّهُ بِالْقُوَى الرُّوحِيَّةِ

وَالْجَسَدِيَّة، فَإِذَا ظَفَرَ بِإِذْنِه كَانَ مُصْلِحًا فِي الأَرْضِ مُسْتَعْمِرًا فِيهَا، وَإِذَا قَبَضَهُ إِلَيْه بِانْتِهَاءِ أَجَلِه الْمُسَمَّى كَانَ فِي رَحْمَتِه نَاعِمًا فِيهَا، لَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَسْتَخِفَّ بِالأَهْوَالِ، وَيَثْبُتَ فِي الْقِتَالِ ثَبَاتَ الأَجْبَالِ....

(**الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ**) أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى الله تَعَالَى بِالدُّعَاءِ مُفِيدٌ فِي الْقِتَالِ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْه قَوْلُهُ تَعَالَى: (**فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ الله**) إِذْ عَطَفَهَا بِالْفَاءِ عَلَى آيَةِ الدُّعَاءِ، وَذَلِكَ مَعْقُولُ الْمَعْنَى؛ فَإِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ آيَةُ ذَلِكَ الإِيمَان....

(**الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ**) دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ مِنَ السُّنَنِ الْعَامَّة وَهُوَ مَا يُعَبِّرُ عَنْهُ عُلَمَاءُ الْحِكْمَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِتَنَازُعِ الْبَقَاءِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْحَرْبَ طَبِيعِيَّةٌ فِي الْبَشَرِ؛ لأَنَّهَا مِنْ فُرُوعِ سُنَّة تَنَازُعِ الْبَقَاءِ الْعَامَّة. وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: (**وَلَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَت الأَرْضُ**) لَيْسَ نَصًّا فِيمَا يَكُونُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ خَاصَّةً، بَلْ هُوَ عَامٌّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّنَازُعِ بَيْنَ النَّاسِ الَّذِي يَقْتَضِي الْمُدَافَعَةَ والمغالبة...

(**الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ**) قَوْلُهُ تَعَالَى: (**لَفَسَدَت الأَرْضُ**) يُؤَيِّدُ السُّنَّةَ الَّتِي يُعَبِّرُ عَنْهَا عُلَمَاءُ الاجْتِمَاعِ بِالانْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ أَوْ بَقَاءِ الأَمْثَلِ. وَوَجْهُ ذَلِكَ جَعْلُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ مَا قَبْلَهُ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ مَا فُطِرَ عَلَيْه النَّاسُ مِنْ مُدَافَعَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَنِ الْحَقِّ وَالْمَصْلَحَةِ هُوَ الْمَانِعُ مِنْ

فَسَادِ الأَرْضِ، أَيْ: هُوَ سَبَبُ بَقَاءِ الْحَقِّ وَبَقَاءِ الصَّلاحِ. وَيُعَزِّزُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ حِكْمَةِ الإِذْنِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ فِي سُورَةِ الْحَجِّ: (**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**)، (الحج: ٣٩ – ٤١) فَهَذَا إِرْشَادٌ إِلَى تَنَازُعِ الْبَقَاءِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ، وَأَنَّهُ يَنْتَهِي بِبَقَاءِ الأَمْثَلِ وَحِفْظِ الأَفْضَلِ)[1].

وصاحب المنار من أكثر المفسرين الذين وقفوا عند هذه الآيات تعقيبا وتحليلاً، كما تبين من هذا العرض الذي حرصت على نقله — على طوله – ليظهر ما لدى الرجل من حرص على بيان السنن عامة، وفي آيات بقاء الأمم وفنائها خاصة كما هنا، كما نراه يربط بينها وبين الآيات السابقة: بأنه تعالى: (لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مِنَ الأَحْكَامِ مَا ذَكَرَ فِي الآيَاتِ السَّابِقَةِ، قَفَّى عَلَيْهِ بِذِكْرِ بَعْضِ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ لأَجْلِ الْعِظَةِ وَالاعْتِبَارِ بِمَا تَتَضَمَّنُهُ الْوَقَائِعُ وَالآثَارُ، كَمَا هِيَ سُنَّةُ الْقُرْآنِ، فِي

١– المنار:٢/٣٩٠–٣٩٥ بتصرف واختصار.

تَنْوِيعِ التَّذْكِيرِ وَالْبَيَانِ، بَلِ الانْتِقَالُ هُنَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الأَحْكَامِ مَسْرُودَةً مَعَ بَيَانِ حِكْمَتِهَا، وَالتَّنْبِيهِ لِفَائِدَتِهَا، إِلَى حُكْمٍ سَبَقَتْهُ حِكْمَتُهُ، وَتَقَدَّمَتْهُ فَائِدَتُهُ، فِي ضِمْنِ وَاقِعَةٍ مَضَتْ زِيَادَةً فِي الْبَصِيرَةِ وَمُبَالَغَةً فِي الْحَمْلِ عَلَى الاعْتِبَارِ، وَهُوَ حُكْمُ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَيَتْلُوهُ حُكْمُ بَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِهِ. الأَحْكَامُ السَّابِقَةُ تَتَعَلَّقُ بِالأَشْخَاصِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ، وَهَذَانِ الْحُكْمَانِ فِي أَمْرٍ عَامٍّ يَتَعَلَّقُ بِالأُمَمِ مِنْ حَيْثُ حِفْظِ وُجُودِهَا، وَدَوَامِ اسْتِقْلالِهَا، بِمُدَافَعَةِ الْمُعْتَدِينَ عَنْهَا، وَبَذْلِ الرُّوحِ وَالْمَالِ فِي حِفْظِ مَصَالِحِهَا، وَتَوْفِيرِ مَنَافِعِهَا؛ وَلِذَلِكَ كَانَ الأُسْلُوبُ أَشَدَّ تَأْثِيرًا، وَأَعْظَمَ تَذْكِيرًا؛ لأَنَّ الإِشَارَةَ فِي سِيَاقِ التَّذْكِيرِ بِمَنَافِعِ الشَّخْصِ وَمَصَالِحِهِ فِي نَفْسِهِ وَفِيمَنْ يَتَّصِلُ بِهِ كَافِيَةٌ لِلتَّذَكُّرِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُوعَظُ بِهِ لِمُوَافَقَةِ ذَلِكَ لِهَوَاهُ، فَلَهَا مِنَ النَّفْسِ عَوْنٌ لا يَغِيبُ، وَوَازِعٌ لا يُعْصَى، وَأَمَّا الْمَصَالِحُ الْعَامَّةُ فَإِنَّهُ لا يَفْطُنُ لَهَا وَلا يَرْغَبُ فِيهَا إِلاَّ الأَقَلُّونَ، فَالْعِنَايَةُ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِمِقْدَارِ بُعْدِ الْجَمَاهِيرِ عَنْهَا، فَمِنْ ثَمَّ جَاءَتْ هَذِهِ الآيَاتُ بِبَيَانٍ أَجْلَى وَأُسْلُوبٍ أَفْعَلَ وَأَقْوَى[1].

ونلمح في ذلك تأكيد صاحب المنار على أسباب بقاء الأمم والفرق بين الآيات التي تتناول أحكام الأفراد وما يخصهم، والآيات

١- المنار: ٢/٣٦٠.

لتي تتناول بقاء الأمم وحياتها، ومدى وقوف العامة على ما يعين على بقاء الأمم وأنه لا يفطن له إلا الأقلون، والتأكيد أن المال وجهاد من أسباب بقاء الأمم كما سيأتي بيانه عما قريب.

ويتجاوز صاحب المنار الروايات التي وردت في القصة لضعفها ووهنها، ويعجب لم وقف أمامها المفسرون وشغلوا أنفسهم بها بل شغلوا العقل المسلم بها حينا من الدهر بما يبدد جهده ويفرغ عقله من هدايات القران وسنن الله فيه؟؟.

ويستدعي الشيخ رشيد السامع والقارئ ليفيد من عطاءات القرآن التي لمسها شيخه الأستاذ الإمام بقوله: (إِذَا عَلِمْتَ هَذَا فَأَلْقِ السَّمْعَ إِلَى مَا نَرْوِيهِ لَكَ عَنِ الْأُسْتَاذِ الإِمَامِ، وَتَدَبَّرْ مَا فِيهِ مِنْ حَقَائِقِ عِلْمِ الاجْتِمَاعِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِتَعْلَمَ أَنَّ حَقَائِقَ هِدَايَةِ كِتَابِ اللهِ يَتَجَلَّى مِنْهَا فِي كُلِّ عَصْرٍ لِلْعَارِفِينَ بِاللهِ مَا لَمْ يَتَجَلَّ لِسِوَاهُمْ، وَأَنَّهُ الْكِتَابُ الَّذِي لا تَنْتَهِي هِدَايَتُهُ وَلا تَنْفَدُ مَعَارِفُهُ، وَأَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ كَالْمَطَرِ قَدْ يَكُونُ فِي آخِرِهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي أَوَّلِهِ كَمَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[1].

ويتابع الشيخ رشيد شيخه في اختيار أن الموت هنا موت معنوي والحياة حياة معنوية إذ يقول الأستاذ الإمام: (خَرَجُوا فَارِّينَ (**فَقَالَ**

١- المنار: ٢/٣٦١.

لَهُمُ اللهُ مُوتُوا) أَيْ: أَمَاتَهُمْ بِإِمْكَانِ الْعَدُوِّ مِنْهُمْ، فَالأَمْرُ أَمْرُ التَّكْوِينِ لا أَمْرُ التَّشْرِيعِ؛ أَيْ: قَضَتْ سُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ بِأَنْ يَمُوتُوا بِمَا أَتَوْهُ مِنْ سَبَبِ الْمَوْتِ، وَهُوَ تَمْكِينُ الْعَدُوِّ الْمُحَارِبِ مِنْ أَقْفَائِهِمْ بِالْفِرَارِ، فَفَتَكَ بِهِمْ وَقَتَلَ أَكْثَرَهُمْ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّهُمْ مَاتُوا؛ لأَنَّ أَمْرَ التَّكْوِينِ عِبَارَةٌ عَنْ مَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ فَلَا يُمْكِنُ تَخَلُّفُهُ، وَلِلاسْتِغْنَاءِ عَنِ التَّصْرِيحِ بِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: **(ثُمَّ أَحْيَاهُمْ)** وَإِنَّمَا يَكُونُ الإِحْيَاءُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْكَلامُ فِي الْقَوْمِ لا فِي أَفْرَادٍ لَهُمْ خُصُوصِيَّةٌ؛ لأَنَّ الْمُرَادَ بَيَانُ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الأُمَمِ الَّتِي تَجْبُنَ فَلا تُدَافِعُ الْعَادِينَ عَلَيْهَا، وَمَعْنَى حَيَاةِ الأُمَمِ وَمَوْتِهَا فِي عُرْفِ النَّاسِ جَمِيعِهِمْ مَعْرُوفٌ، فَمَعْنَى مَوْتِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ هُوَ أَنَّ الْعَدُوَّ نَكَّلَ بِهِمْ فَأَفْنَى قُوَّتَهُمْ، وَأَزَالَ اسْتِقْلالَ أُمَّتِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ لا تُعَدُّ أُمَّةً، بِأَنْ تَفَرَّقَ شَمْلُهَا، وَذَهَبَتْ جَامِعَتُهَا، فَكُلُّ مَنْ بَقِيَ مِنْ أَفْرَادِهَا خَاضِعِينَ لِلْغَالِبِينَ ضَائِعِينَ فِيهِمْ، مُدْغَمِينَ فِي غِمَارِهِمْ، لا وُجُودَ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّمَا وُجُودُهُمْ تَابِعٌ لِوُجُودِ غَيْرِهِمْ، وَمَعْنَى حَيَاتِهِمْ هُوَ عَوْدُ الاسْتِقْلالِ إِلَيْهِمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي الْبَلاءِ يُصِيبُ النَّاسَ، أَنَّهُ يَكُونُ تَأْدِيبًا لَهُمْ، وَمُطَهِّرًا لِنُفُوسِهِمْ مِمَّا عَرَضَ لَهَا مِنْ دَنَسِ الأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ، أَشْعَرَ اللهُ أُولَئِكَ الْقَوْمَ بِسُوءِ عَاقِبَةِ الْجُبْنِ وَالْخَوْفِ وَالْفَشَلِ وَالتَّخَاذُلِ بِمَا أَذَاقَهُمْ مِنْ مَرَارَتِهَا، فَجَمَعُوا كَلِمَتَهُمْ، وَوَثَّقُوا رَابِطَتَهُمْ، حَتَّى عَادَتْ لَهُمْ

وَحْدَتُهُمْ قَوِيَّةً فَاعْتَزُّوا وَكَثُرُوا إِلَى أَنْ خَرَجُوا مِنْ ذُلِّ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا إِلَى عِزِّ الاسْتِقْلالِ، فَهَذَا مَعْنَى حَيَاةِ الأُمَمِ وَمَوْتِهَا، يَمُوتُ قَوْمٌ مِنْهُمْ بِاحْتِمَالِ الظُّلْمِ، وَيَذِلُّ الآخَرُونَ حَتَّى كَأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ، إِذْ لا تَصْدُرُ عَنْهُمْ أَعْمَالُ الأُمَمِ الْحَيَّةِ، مِنْ حِفْظِ سِيَاجِ الْوَحْدَةِ، وَحِمَايَةِ الْبَيْضَةِ، بِتَكَافُلِ أَفْرَادِ الأُمَّةِ ومنعتهم، فَيَعْتَبِرُ الْبَاقُونَ فَيَنْهَضُونَ إِلَى تَدَارُكِ مَا فَاتَ، وَالاسْتِعْدَادِ لِمَا هُوَ آتٍ، وَيَتَعَلَّمُونَ مِنْ فِعْلِ عَدُوِّهِمْ بِهِمْ كَيْفَ يَدْفَعُونَهُ عَنْهُمْ، قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: ((إِنَّ بَقِيَّةَ السَّيْفِ هِيَ الْبَاقِيَةُ؛ أَي: الَّتِي يَحْيَا بِهَا أُولَئِكَ الْمَيِّتُونَ، فَالْمَوْتُ وَالإِحْيَاءُ وَاقِعَانِ عَلَى الْقَوْمِ فِي مَجْمُوعِهِمْ عَلَى مَا عَهِدْنَا فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ، إِذْ خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي زَمَنِ تَنــزِيلِهِ بِمَا كَانَ مِنْ آبَائِهِمُ الأَوَّلِينَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: (**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) (البقرة: ٤٩) وَقَوْلِهِ: (**ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ**) (البقرة: ٥٦) وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقُلْنَا: إِنَّ الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الْخِطَابِ تَقْرِيرُ مَعْنَى وَحْدَةِ الأُمَّةِ وَتَكَافُلِهَا، وَتَأْثِيرُ سِيرَةِ بَعْضِهَا فِي بَعْضٍ حَتَّى كَأَنَّهَا شَخْصٌ وَاحِدٌ، وَكُلُّ جَمَاعَةٍ مِنْهَا كَعُضْوٍ مِنْهُ، فَإِنِ انْقَطَعَ الْعُضْوُ الْعَامِلُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَانِعًا مِنْ مُخَاطَبَةِ الشَّخْصِ بِمَا عَمِلَهُ قَبْلَ قَطْعِهِ، وَهَذَا الاسْتِعْمَالُ مَعْهُودٌ فِي سَائِرِ الْكَلامِ الْعَرَبِيِّ. يُقَالُ: هَجَمْنَا عَلَى بَنِي فُلانٍ حَتَّى أَفْنَيْنَاهُمْ أَوْ أَتَيْنَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَكَرُّوا عَلَيْنَا - مَثَلاً -

وَإِنَّمَا كَرَّ عَلَيْهِمْ مَنْ بقي منهم، أَقُولُ: وَإِطْلاقُ الْحَيَاة عَلَى الْحَالَة الْمَعْنَوِيَّة الشَّرِيفَة فِي الأَشْخَاص وَالأُمَم، وَالْمَوْت عَلَى مُقَابِلهَا مَعْهُودٌ كَقَوْله تَعَالَى: (**يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجيبُوا للَّه وَللرَّسُول إذَا دَعَاكُمْ لمَا يُحْيِيكُمْ**) (٨: ٢٤) وَقَوْله: (**أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَات لَيْسَ بخَارِجٍ منْهَا**) (٦: ١٢٢) الآيَةَ. وَانْظُرْ إِلَى دقَّة التَّعْبِير فِي عَطْف الأَمْرِ بِالْمَوْت عَلَى الْخُرُوجِ منَ الدِّيَارِ بِالْفَاءِ الدَّالَّة عَلَى اتِّصَال الْهَلَاك بِالْفرَارِ منَ الْعَدُوِّ، وَإِلَى عَطْفه الإِخْبَارَ بِإِحْيَائهِمْ بِـــ (ثُمَّ) الدَّالَّة عَلَى تَرَاخي ذَلكَ وَتَأَخُّرِه؛ وَلأَنَّ الأُمَّةَ إِذَا شَعَرَتْ بعلَّة الْبَلاء بَعْدَ وُقُوعه بهَا وَذَهَابه باسْتقْلالهَا فَإِنَّهُ لا يَتَيَسَّرُ لَهَا تَدَارُكُ مَا فَاتَ إِلاَّ فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ، فَمَا قَرَّرَهُ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ هُوَ مَا يُعْطيه النَّظْمُ الْبَليغُ وَتُؤَيِّدُهُ السُّنَنُ الْحَكيمَةُ، وَأَمَّا الْمَوْتُ الطَّبيعيُّ فَهُوَ لا يَتَكَرَّرُ كَمَا عُلمَ منْ سُنَّة الله وَمنْ كتَابه إذْ قَالَ: (**لا يَذُوقُونَ فيهَا الْمَوْتَ إلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى**) (٤٤: ٥٦) وَقَالَ: (**وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**) (٤٠: ١١) وَلذَلكَ أَوَّلَ بَعْضُهُمُ الْمَوْتَ هُنَا بِأَنَّهُ نَوْعٌ منَ السَّكْتَة وَالإِغْمَاء الشَّديد لَمْ تُفَارِقْ به الأَرْوَاحُ أَبْدَانَهَا، وَقَدْ قَالَ بَعْدَ مَا قَرَّرَهُ: هَذَا هُوَ الْمُتَبَادَرُ فَلَا نُحَمِّلُ الْقُرْآنَ مَا لا يَحْملُ لنُطَبِّقَهُ عَلَى بَعْضِ قصَص بَني إِسْرَائيلَ، وَالْقُرْآنُ لَمْ يَقُلْ إِنَّ أُولَئكَ الأُلُوفَ منْهُمْ كَمَا قَالَ فِي الآيَات

الآتِيَةِ وَغَيْرِهَا، وَلَوْ فَرَضْنَا صِحَّةَ مَا قَالُوهُ مِنْ أَنَّهُمْ هَرَبُوا مِنَ الطَّاعُونِ، وَأَنَّ الْفَائِدَةَ فِي إِيرَادِ قِصَّتِهِمْ بَيَانُ أَنَّهُ لا مَفَرَّ مِنَ الْمَوْتِ؛ لَمَّا كَانَ لَنَا مَنْدُوحَةٌ عَنْ تَفْسِيرِ إِحْيَائِهِمْ بِأَنَّ الْبَاقِينَ مِنْهُمْ تَنَاسَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَكَثُرُوا، وَكَانَتِ الأُمَّةُ بِهِمْ حَيَّةً عَزِيزَةً؛ لِيَصِحَّ أَنْ تَكُونَ الآيَةُ تَمْهِيدًا لِمَا بَعْدَهَا مُرْتَبِطَةً بِهِ، وَاللهُ تَعَالَى لا يَأْمُرُنَا بِالْقِتَالِ لأَجْلِ أَنْ نُقْتَلَ ثُمَّ يُحْيِينَا، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَبْعَثُ مُنْ قُتِلَ مِنَّا بَعْدَ مَوْتِهِمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

(**إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**) كَافَّةً بِمَا جُعِلَ فِي مَوْتِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ، إِذْ جَعَلَ الْمَصَائِبَ وَالْعَظَائِمَ مُحْيِيَةً لِلْهِمَمِ وَالْعَزَائِمِ كَمَا جَعَلَ الْهَلَعَ وَالْجُبْنَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الأَخْلاقِ الَّتِي أَفْسَدَهَا التَّرَفُ وَالسَّرَفُ مِنْ أَسْبَابِ ضَعْفِ الأُمَمِ، وَجَعَلَ ضَعْفَ أُمَّةٍ مُغْرِيًا لأُمَّةٍ قَوِيَّةٍ بِالْوَثَبَانِ عَلَيْهَا، وَالاعْتِدَاءِ عَلَى اسْتِقْلالِهَا، وَجَعَلَ الاعْتِدَاءَ مُنَبِّهًا لِلْقُوَى الْكَامِنَةِ فِي الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ، وَمُلْجِئًا لَهُ إِلَى اسْتِعْمَالِ مَوَاهِبِ اللهِ فِيمَا وُهِبَتْ لأَجْلِهِ حَتَّى تَحْيَا الأُمَمُ حَيَاةً عَزِيزَةً، وَيَظْهَرَ فَضْلُ اللهِ تَعَالَى فِيهَا[1].

والناظر في تحليل صاحب المنار لآيات البقاء والفناء هذه يدرك مدى انشغاله بسنن البقاء والفناء للأمم، وقناعته بأن المراد من الموت هنا الموت المعنوي ويؤيد رأيه بأسلوب العرب، وآيات القرآن الكريم،كما تظهر قدرته على الربط الموضوعي بين الآيات إذ يجعل

---

١ - المنار: ٢/٣٦٢-٣٦٤، بتصرف يسير.

فضل الله هنا المراد به ما جعل لهم من خلال الموت الحياة ومن خلال المصائب والعظائم ما يحيي الهمم.

وقد عني صاحب المنار بتتبع هذه الأسباب، التي رصدها القرآن وأبان في تفسيره أنها أسباب رئيسة من أسباب بقاء الأمم، ويمكن أن نتناول هذه الأسباب في نقاط على النحو التالي:

١- الحرية:

فالحرية سبب أصيل من أسباب بقاء الأمم واستمرارها، إذا وجدت في أمة من الأمم كانت قادرة على التجدد والعطاء، وكان لديها من ضمان الأمن والأمان ما يعينها على التفكير والإنتاج، بل الإبداع في إنتاجها وعطائها، وقد أتى على المسلمين حين من الدهر توفرت لهم تلك الحرية الناهضة البانية التي جعلت أحدهم يخاطب رأس الدولة وخليفة المسلمين بما يظهره بأنه أجير عند المسلمين لا أمير، لا سمع له ولا طاعة إلا إذا عدل وأعطى، وما يكون من خليفة المسلمين إلا أن يعلن أمام مجتمع المسلمين ما يؤكد أنه واحد منهم لا وكس ولا شطط، فتعود كلمة الناقد: (الآن نسمع ونطيع يا أمير المؤمنين)[1] في صورة لم ترق إليها دساتير أسبق الأمم حضارة ورقيا كما تزعم، وإذا غابت العدالة في أمة غاب منها سبب البقاء وصمام

١- انظر صفة الصفوة: لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ت: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ١/٢٠٣.

الأمان؛ إذ كيف يفكر من لا يأمن على نفسه وولده وأهله وماله، أو (كيف يفكر من ليس في بيته دقيق فإنه مدله العقل)، كما كان الشافعي يقول.

يتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب بقاء الأمم وهو يضع قواعد أساسية تقوم عليها سورة البقرة فيقول: (القاعدة العشرون: حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين[1]، وعندما يتناول قوله – تعالى-: (**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّه فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[2]، يقول: (هذه قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحدا من أهله على الخروج منه)[3].

وعندما يتناول الحديث عن قوله – تعالى-: (**وأطيعوا الله**)[4] يوازن بين حرية الفرد واستقلاله وحرية الأمة وسمعه وطاعته لأولي

١- المنار: ٩٧/١.
٢- البقرة: ٢٦٥.
٣- تفسير المنار: ٣٣/٣.
٤- النساء من الآية: ٥٩.

الحل والعقد منها فيرى أنه (لا غضاضة في سمع الفرد وطاعته لأهل الحل والعقد والنـــزول على رأيهم).

وعندما يتناول الحديث عن قوله – تعالى-: ﴿**وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ**﴾[1] تراه يحدد العلاقة بين حرية الفرد وحرية الأمة فيقول: (الواجب على الجميع تفويض ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر في زمنه وإليهم دون غيرهم من بعده؛ لأن جميع المصالح العامة توكل إليهم ومن أمكنه أن يعلم بهذا التفويض شيئا يستنبطه منهم فليقف عنده ولا يتعداه، فإن مثل هذا من حقهم، والناس فيه تبع لهم، ولذلك وجبت فيه طاعتهم.

لا غضاضة في هذا على فرد من المسلمين، ولا خدش لحريته واستقلاله، ولا نيل من عزة نفسه، فحسبه أنه حر مستقل في خويصة نفسه، لم يكلف أن يقلد أحدا في عقيدته ولا في عبادته، ولا في غير ذلك من شؤونه الخاصة به، وليس من الحكمة ولا من العدل ولا من المصلحة أن يسمح له بالتصرف في شؤون الأمة ومصالحها، وأن يفتات عليها في أمورها العامة، وإنما الحكمة والعدل أن تكون الأمة في مجموعها حرة مستقلة في شؤونها كالأفراد في خاصة أنفسهم، فلا يتصرف في هذه الشؤون العامة إلا من تثق بهم من أهل الحل والعقد، المعبر عنهم في كتاب الله بأولي الأمر؛ لأن تصرفهم وقد وثقت بهم الأمة هو عين تصرفها،وذلك منتهى ما يمكن أن تكون به سلطتها من

١- النساء: ٨٣.

نفسها)[1].

فهناك خطوط تلاقي بين حرية الفرد وحرية الأمة، وعندما يعي كل من الفرد والأمة- ممثلة في أهل الحل والعقد فيها- ما له من حق وما عليه من واجب يؤدي كل دوره دون تحيف أو تضخم، فلا يكبر جانب على آخر، ولا يضمر حق أحدهم؛ لأن حق الآخر تمدد في فراغه، إن هذا التوازن في حق الحرية بين الفرد والأمة جانب أساس من جوانب البقاء وعامل رئيس من عوامل الاستقرار والاستمرار، فليست الحرية فوضى لا ضابط لها ولا رابط، وليست مطلقة دون حدود، فالفرق بين الحرية والفوضى ضابط، والفرق بين الاستقلال والاستبداد ضابط، وهكذا كل فضيلة تقع بين رزيلتين.

وخلاصة الأمر: أن الحرية سبب من أسباب البقاء، وعامل من عوامل الاستقرار على مستوى الفرد والأمة، من هنا كانت مقصدا من مقاصد التشريع الإسلامي، ونيط بها كثير من الأحكام، فلا طلاق لمكره، ولا تثريب على من تلفظ بكلمة الكفر مكرها وقلبه مطمئن بالإيمان، بل قيل له: (إن عادوا فعد)[2] إلى آخر الأحكام التي والأمة التي تغيب منها الحرية أمة غائبة عن الحياة الكريمة المنتجة

١- تفسير المنار: ٢٤٣/٥، ٢٤٤.

٢- والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة النحل، وهو صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ٣٨٩/٢، والبيهقي في السنن الصغرى باب المكره على الردة، ٢٨٢/٣، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٣٢١/٤.

الفاعلة، وإن عاشت بين الناس بجسده وكثر في العالمين تعدادها، فالقيمة الحقيقية للإنسان بكيفه لا بكمه.تسقط في الشريعة بسقوط نعمة الحرية عن الإنسان.

ضوابط الحرية في نظر صاحب المنار:

يقول الشيخ رشيد: (قَالَ الْأُسْتَاذُ "الأستاذ الإمام محمد عبده" وَلَيْسَتْ سَعَادَةُ الإِنْسَانِ فِي حُرِّيَّةِ الْبَهَائِمِ بَلْ فِي الْحُرِّيَّةِ الَّتِي تَكُونُ فِي دَائِرَةِ الشَّرْعِ وَمُحِيطِه، فَمَنِ اتَّبَعَ هِدَايَةَ اللهِ فَلا شَكَّ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ تَمَتُّعًا حَسَنًا، وَيَتَلَقَّى بِالصَّبْرِ كُلَّ مَا أَصَابَهُ، وَبِالطُّمَأْنِينَةِ مَا يَتَوَقَّعُ أَنْ يُصِيبَهُ فَلا يَخَافُ وَلا يَحْزَنُ)[1].

ومن القواعد التي يستنبطها صاحب المنار من سورة البقرة: قاعدة الحرية حرية الدين والاعتقاد فيقول): (القاعدة العشرون: حرية الدين والاعتقاد ومنع الاضطهاد الديني ولو بالقتال حتى يكون الدين كله لله ومنع الإكراه على الدين، وذلك قوله تعالى: (**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**)[2].

٢- الجهاد:

الجهاد صمام أمان لحياة الأمم وبقائها، بدونه تصبح مطمعا لمن لا

١- المنار: ٢٣٨/١.
٢- البقرة: ١٩٣.

يدفع عن نفسه، وغرضا لمن لا يثقل في ميزان الرجال، وبه تعز الأمم، وتبقى كريمة الجانب، مصونة المقام بين الأمم، وعندما تنعم وتترف وتترك الجهاد تتبدل أحوالها وتركن إلى النعيم الزائل والعرض الحائل والزخرف الذي لا يدوم، وتبقى أمة مستهلكة طرية ضعيفة لا ترد يد لامس، وتختار خيارات تسميها خيارات لازمة لا مفر منها أو بتعبير العصر خيارات (استراتيجية)، فيطمع ذلك عدوها فيها أكثر وأكثر، وواقع الأمة المسلمة لا يحتاج إلى مزيد بيان لتلك الصفة التي غلبت عليها وألقتها في طريق عدوها لقمة طرية، وشربة سائغة، لا يغص بها ولا يألم من تناولها.

لقد حذر الرسول (ﷺ) من هذه الحال التي ما دبت في أمة من الأمم إلا أفقدتها وجودها الحقيقي، وبقاءها القيمي بين الأمم، أخرج أبو داود في سننه: (حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْمَهْرِيُّ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَخْبَرَنِي حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ وحَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُسَافِرٍ التِّنِّيسِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّه بْنُ يَحْيَى الْبُرُلُّسِيُّ حَدَّثَنَا حَيْوَةُ بْنُ شُرَيْحٍ عَنْ إِسْحَقَ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ سُلَيْمَانُ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخُرَاسَانِيِّ أَنَّ عَطَاءً الْخُرَاسَانِيَّ حَدَّثَهُ أَنَّ نَافِعًا حَدَّثَهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَة وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لا يَنــزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى

دِينِكُمْ، قَالَ أَبُو دَاوُد الإِخْبَارُ لِجَعْفَرٍ وَهَذَا لَفْظُهُ)[1].

يتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب البقاء، وعوامل الاستمرار والاستقرار للأمم، وهو يعالج صورة من صور البقاء والفناء لأمة عرض لها ما تفيد منه الأمة، وهي صورة الملأ الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وذلك عند تفسيره قوله – تعال-: (**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** (٢٤٣) **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[2]، إذ يقول: (خرجوا فارين (**فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا**)، أي أماتهم بإمكان العدو منهم، فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع، أي قضت سنته بأن يموتوا بما أوتوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم، و لم يصرح بأنهم ماتوا؛ لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته -سبحانه-، فلا يمكن تخلفه، وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك: (ثم أحياهم) وإنما يكون الإحياء بعد الموت، والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية؛ لأن المراد بيان سنته -تعالى- في الأمم

١- سنن أبي داود – (ج ٩ / ص ٣٢٥).
٢- البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤.

وموتها في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى موت أولئك القوم أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، إنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم؛ ذلك أن من رحمة الله -تعالى- في البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبا لهم، ومطهرا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة، أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلى عز الاستقلال، فهذا معنى حياة الأمم وموتها، يموت قوم منها باحتمال الظلم، ويذل الآخرون حتى كأنهم أموات؛ إذ لا تصدر عنهم أعمال الأمم الحية)[1].

٣- العدالة:

العدل أساس الملك، وسبب من أسباب بقائه، وعنصر من عناصر استمراره واستقراره، وهو أساس الكون من أصغر ذرة إلى أكبر

١- تفسير المنار: ٣٦٢/١، ٣٦٣.

مجرة، وصى به القرآن الكريم مع الصديق والعدو، والقريب والبعيد: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**)[1]، وقال تعالى: (**وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)[2]، وقال تعالى مبينا أن العدل مع الجميع دون تقييد أو احتزاء: (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)[3]، وقال سبحانه آمرا الأمة المسلمة بإقامة العدل بينها والحكم به بين المتنازعين: (**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**)[4].

١- المائدة: ٨.
٢- الأنعام: ١٥٢.
٣- النحل: ٩٠.
٤- الحجرات: ٩.

ورصد صاحب المنار أهمية العدالة وربطها ربطا جيدا بالدين والشريعة والكون والطبيعة، فيقول عند تناوله قوله تعالى: (**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**)[1]: و(أَمَّا قَوْلُهُ – تَعَالَى –: قَائِمًا بِالْقِسْطِ فَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ – تَعَالَى – شَهِدَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ، وَفِي الْكَوْنِ وَالطَّبِيعَةِ. فَمِنَ الْأَوَّلِ: تَقْرِيرُ الْعَدْلِ فِي الِاعْتِقَادِ، كَالتَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ وَسَطٌ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالشِّرْكِ، وَمِنَ الثَّانِي: جَعْلُ سُنَنِ الْخَلِيقَةِ فِي الْأَكْوَانِ وَالْإِنْسَانِ الدَّالَّةِ عَلَى حَقِّيَّةِ الِاعْتِقَادِ قَائِمَةً عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ، فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذِهِ السُّنَنِ وَنِظَامِهَا الدَّقِيقِ يَتَجَلَّى لَهُ عَدْلُ اللهِ الْعَامِّ، فَالْقِيَامُ بِالْقِسْطِ عَلَى هَذَا مِنْ قَبِيلِ التَّنْبِيهِ إِلَى الْبُرْهَانِ عَلَى صِدْقِ شَهَادَتِهِ – تَعَالَى – فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ؛ لِأَنَّ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِي هَذَا الْعَدْلِ تَدُلُّ عَلَى وَحْدَةِ وَاضِعِهِ...)[2] (فَمَا مِنْ أُمَّةٍ انْحَرَفَتْ عَنْ صِرَاطِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ تُرَاعِ سُنَنَهُ فِي خَلِيقَتِهِ إِلاَّ وَأَحَلَّ بِهَا الْعَدْلُ الْإِلَهِيُّ مَا تَسْتَحِقُّ مِنَ الْجَزَاءِ كَالْفَقْرِ وَالذُّلِّ وَفَقْدِ الْعِزَّةِ وَالسُّلْطَةِ...)[3].

١- آل عمران: ١٨.
٢- المنار: ٣/٢١١.
٣- المنار: ١/٤٦.

٤- الشجاعة:

ومن أسباب بقاء الأمم حية عزيزة لا تمس كرامتها، ولا يهان قدرها، أن تكون شجاعة في سبيل الحق، وأن يرى أعداؤها منها هذا المعنى، على مستوى الأفراد والأنظمة، والشعوب والحكومات، يعالج صاحب المنار هذا السبب من أسباب البقاء في أكثر من موضع فيقول عند تفسير قوله تعالى:

(**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**)[1]:

(الْجُبْنَ عَنْ مُدَافَعَةِ الأَعْدَاءِ، وَتَسْلِيمِ الدِّيَارِ بِالْهَزِيمَةِ وَالْفِرَارِ، هُوَ الْمَوْتُ الْمَحْفُوفُ بِالْخِزْيِ وَالْعَارِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ الْعَزِيزَةَ الطَّيِّبَةَ هِيَ الْحَيَاةُ الْمِلِّيَّةُ الْمَحْفُوظَةُ مِنْ عُدْوَانِ الْمُعْتَدِينَ، فَلَا تُقَصِّرُوا فِي حِمَايَةِ جَامِعَتِكُمْ فِي الْمِلَّةِ وَالدِّينِ.

(**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللهِ: هُوَ الْقِتَالُ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ، وَتَأْمِينِ دِينِهِ وَنَشْرِ دَعْوَتِهِ، وَالدِّفَاعِ عَنْ حِزْبِهِ كَيْ لا يُغْلَبُوا عَلَى حَقِّهِمْ، وَلا يُصَدُّوا عَنْ إِظْهَارِ أَمْرِهِمْ، فَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْقِتَالِ لِأَجْلِ الدِّينِ؛ لأَنَّهُ يَشْمَلُ مَعَ الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَحِمَايَةِ دَعْوَتِهِ الدِّفَاعَ عَنِ الْحَوْزَةِ إِذَا هَمَّ الطَّامِعُ الْمُهَاجِمُ بِاغْتِصَابِ بِلادِنَا وَالتَّمَتُّعِ بِخَيْرَاتِ أَرْضِنَا، أَوْ أَرَادَ الْعَدُوُّ الْبَاغِي

١- البقرة: ٢٤٤.

إِذْلالَنَا، وَالْعُدْوَانَ عَلَى اسْتِقْلالِنَا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لأَجْلِ فِتْنَتِنَا فِي دِينِنَا، فَهَذَا الأَمْرُ مُطْلَقٌ كَأَنَّهُ أَمْرٌ لَنَا بِأَنْ نَتَحَلَّى بِحِلْيَةِ الشَّجَاعَةِ، وَنَتَسَرْبَلَ بِسَرَابِيلِ الْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ؛ لِتَكُونَ حُقُوقُنَا مَحْفُوظَةً، وَحُرْمَتُنَا مَصُونَةً، لا نُؤْخَذُ مِنْ جَانِبِ دِينِنَا، وَلا نُغْتَالُ مِنْ جِهَةِ دُنْيَانَا، بَلْ نَبْقَى أَعِزَّاءَ الْجَانِبَيْنِ، جَدِيرِينَ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ، أَلا تَرَى أَنَّ مَنْ سَاقَ اللهُ لَنَا الْعِبْرَةَ بِحَالِهِمْ، وَذَكَّرَنَا بِسُنَّتِهِ فِي مَوْتِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ، لَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُمْ قُوتِلُوا وَقُتِلُوا لأَجْلِ الدِّينِ! فَالْقِتَالُ لِحِمَايَةِ الْحَقِيقَةِ كَالْقِتَالِ لِحِمَايَةِ الْحَقِّ كُلِّهِ جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللهِ....)[1].

وكأن صاحب المنار يعايش ما تعانيه الأمة اليوم، ويشعر بما تحتاجه في عالم الصراعات والتكتلات التي لا تقوى أمة بدونها.

٥- الأخلاق:

الأخلاق الحميدة، الإنسانية منها والإسلامية سبب من أسباب البقاء للأمم والشعوب والأفراد، و صمام أمانها، عرفت ذلك البشرية في تاريخها الطويل، ومن خلال تجاربها المتوالية، وواقعها المعيش، تناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب بقاء الأمم وفنائها فقال:

(إِذَا ضَلَّتِ الأُمَّةُ سَبِيلَ الْحَقِّ وَلَعِبَ الْبَاطِلُ بِأَهْوَائِهَا، فَفَسَدَتْ أَخْلَاقُهَا وَاعْتَلَّتْ أَعْمَالُهَا، وَقَعَتْ فِي الشَّقَاءِ لا مَحَالَةَ، وَسَلَّطَ اللهُ

١- المنار: ٣٦٥/٢.

عَلَيْهَا مَنْ يَسْتَذِلُّهَا وَيَسْتَأْثِرُ بِشُئُونِهَا وَلا يُؤَخِّرُ لَهَا الْعَذَابَ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ، وَإِنْ كَانَتْ سَتُلاقِي نَصِيبَهَا مِنْهُ أَيْضًا، فَإِذَا تَمَادَى بِهَا الْغَيُّ وَصَلَ بِهَا إِلَى الْهَلاكِ، وَمَحَا أَثَرَهَا مِنَ الْوُجُودِ، هَكَذَا عَلَّمَنَا اللهُ تَعَالَى كَيْفَ نَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ مَنْ سَبَقَنَا، وَمَنْ بَقِيَتْ آثَارُهُمْ بَيْنَ أَيْدِينَا مِنَ الأُمَمِ، لِنَعْتَبِرَ وَنُمَيِّزَ بَيْنَ مَا بِهِ تَسْعَدُ الأَقْوَامُ وَمَا بِهِ تَشْقَى. أَمَّا فِي الأَفْرَادِ فَلَمْ تَجْرِ سُنَّةُ اللهِ بِلُزُومِ الْعُقُوبَةِ لِكُلِّ ضَالٍّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَقَدْ يُسْتَدْرَجُ الضَّالُّ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُ، وَيُدْرِكُهُ الْمَوْتُ قَبْلَ أَنْ تَزُولَ النِّعْمَةُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا يَلْقَى جَزَاءَهُ (**يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**) (الانفطار: ١٩) ا هـــ)[١].

٦- الإنفاق:

والإنفاق سبب من أسباب بقاء الأمم وحفظ كرامتها وقيمتها بين الأمم، بدونه لا تدفع عن نفسها، ولا تقوى في جهادها،وقد قرنه الله تعالى في آيات كثيرة بالجهاد بالنفس،فهو شقيقها، وقدمه عليه تارة وأخره عنه أخرى، حسب طبيعة الموقف ومتطلبات الآن، ومن ذلك قوله تعالى: (**انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**)[٢]، وفي ذلك دعوة

١- ١/ ٦٠.
٢- التوبة: ٤١.

لكل الناس للنفرة والجهاد بالنفس والمال، (خفافا وثقالا)، كل حسب مكنته وقدرته، ورغب سبحانه في الجهاد بالمال والنفس فجعلها في صورة التجارة مع الله بقوله: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**)[١]، وقال تعالى: (**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** (١٩٥))[٢]، ودعا سبحانه إلى الإنفاق في سبيل الله وعبر عنه بصورة القرض كما في قوله تعالى: (**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ**

١- الصف: ١٠-١٣.

٢- البقرة: ١٩٥.

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥))[1].

وتناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب بقاء الأمم في مواطن عديدة، فيرى:

(أَنَّ الإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ آيَاتِ الإِيمَانِ وَشُعَبِهِ اللاَّزِمَةِ لَهُ عَلَى الإِطْلاقِ، الَّذِي يُشْعِرُ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُنْفِقَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَقَدْ قَضَتِ الْحِكْمَةُ بِهَذَا الإِطْلاقِ فِي أَوَّلِ الإِسْلامِ وَبِمَدْحِ الإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ؛ لأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا فِئَةً قَلِيلَةً فِي أُمَمٍ وَشُعُوبٍ وَقَبَائِلَ تُنَاصِبُهُمُ الْعَدَاوَةَ وَتَبْذُلُ فِي ذَلِكَ الأَمْوَالَ وَالأَرْوَاحَ، فَإِذَا لَمْ يَتَّحِدُوا حَتَّى يَكُونُوا كَشَخْصٍ وَاحِدٍ، وَيَبْذُلُ كُلٌّ وَاحِدٍ مَا بِيَدِهِ لِمَصْلَحَتِهِمُ الْعَامَّةِ، لا تَسْتَقِيمُ لَهُمْ حَالٌ وَلا تَقُومُ لَهُمْ قَائِمَةٌ، وَهَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الْعَامَّةُ فِي كُلِّ دِينٍ عِنْدَ ابْتِدَاءِ ظُهُورِهِ وَأَوَّلِ نَشْأَتِهِ، ثُمَّ بَعْدَ أَنْ تَعْتَزَّ الْمِلَّةُ وَتَكْثُرَ الأُمَّةُ، وَيَصِيرَ يَكْفِي لِحِفْظِ مَصْلَحَتِهَا مَا يَبْذُلُهُ كُلُّ ذِي غِنًى مِنْ بَعْضِ مَالِهِ، وَيَفْرُغَ الْجُمْهُورُ لِلأَعْمَالِ الْخَاصَّةِ بِحَيْثُ يَتَمَكَّنُ ذُو الْعَمَلِ أَنْ يُفِيضَ مِنْ كَسْبِهِ عَلَى أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مُسْتَغْرِقًا فِي السَّعْيِ لِتَعْزِيزِ دِينِهِ وَوِقَايَتِهِ مِنَ الْمَحْوِ وَالزَّوَالِ، بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَخْتَلِفُ الْحَالُ فَلا يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يُؤْثِرَ كُلَّ مُحْتَاجٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ؛ وَلِذَلِكَ تَوَجَّهَتِ النُّفُوسُ بَعْدَ

١- البقرة: ٢٤٤، ٢٤٥.

اسْتِقْرَارِ الإِسْلامِ إِلَى تَقْيِيدِ تِلْكَ الإِطْلاقَاتِ فِي الإِنْفَاقِ، فَسَأَلُوا مَاذَا يُنْفِقُونَ؟ فَأُجِيبُوا بِأَنْ يُنْفِقُوا الْعَفْوَ، وَهُوَ الْفَضْلُ وَالزِّيَادَةُ عَنِ الْحَاجَةِ، وَعَلَيْهِ الأَكْثَرُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَفْوَ نَقِيضُ الْجَهْدِ؛ أَيْ: يُنْفِقُونَ مَا سَهُلَ عَلَيْهِمْ وَتَيَسَّرَ لَهُمْ مِمَّا يَكُونُ فَاضِلاً عَنْ حَاجَتِهِمْ وَحَاجَةِ مَنْ يَعُولُونَ)[1].

بهذا الوعي الراقي بتأسيس الدول واستمرار الدعوات والرسالات يتحدث صاحب المنار، فبذل المال في سبيل بقاء الأمة لابد منه على كل حال، لكن فرق بين وقت التأسيس والبناء، ووقت العلو والاكتفاء، وكلما زادت حاجة الأمة إلى المال في ظرف من الظروف توجب على الأفراد نجدتها وإغاثتها، ولهذا قدم بذل المال على النفس في مواطن؛ لأهميته، وحاجة الظرف إليه.

وينقل صاحب المنار عن شيخه في بذل المال وقوة الأمة به والمقارنة بين الأمة القليلة المنفقة والكثيرة الكازة بقوله:

(... إِنَّ الأُمَّةَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنْ مِلْيُونٍ وَاحِدٍ إِذَا كَانَتْ تَبْذُلُ مِنْ فَضْلِ مَالِهَا فِي مَصَالِحِهَا الْعَامَّةِ، كَإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَتَرْبِيَةِ النَّابِتَةِ عَلَى مَا يُؤَهِّلُهَا لاسْتِعْمَالِهَا وَيُقَرِّرُ الْفَضِيلَةَ فِي أَنْفُسِهَا تَكُونُ أَعَزَّ وَأَقْوَى مِنْ أُمَّةٍ مُؤَلَّفَةٍ مِنْ مِائَةِ مِلْيُونٍ لا يَبْذُلُونَ شَيْئًا مِنْ فُضُولِ أَمْوَالِهِمْ فِي مِثْلِ

١- المنار: ٢/٢٦٨.

ذَلِكَ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الأُمَّةِ الأُولَى يُعَدُّ بِأُمَّةٍ؛ لأَنَّ أُمَّتَهُ عَوْنٌ لَهُ، تُعِدُّهُ جُزْءًا مِنْهَا وَيُعِدُّهَا كُلاً لَهُ؛ وَالأُمَّةُ الثَّانِيَةُ كُلُّهَا لا تُعَدُّ بِوَاحِدٍ؛ لأَنَّ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِهَا (أَيْ أَفْرَادِهَا) يَخْذُلُ الآخَرَ وَيَرَى أَنَّ حَيَاتَهُ بِمَوْتِهِ فَيَكُونُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي حُكْمِ الْمَيِّتِ. وَفِي الْحَقِيقَةِ إِنَّ مِثْلَ هَذَا الْجَمْعِ لا يُسَمَّى أُمَّةً؛ لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ يَعِيشُ وَحْدَهُ وَإِنْ كَانَ فِي جَانِبِهِ أَهْلُ الأَرْضِ، فَهُوَ لا يَتَّصِلُ بِمَنْ مَعَهُ لِيَمُدَّهُمْ وَيَسْتَمِدَّ مِنْهُمْ، وَيَتَعَاوَنَ الْجَمِيعُ عَلَى حِفْظِ الْوَحْدَةِ الْجَامِعَةِ لَهُمُ الَّتِي تُحَقِّقُ مَعْنَى الأُمَّةِ فِيهِمْ. وَإِنَّهُ لَمْ تَنْهَضْ أُمَّةٌ وَلا مِلَّةٌ إِلاَّ بِمَثَلِ هَذَا التَّعَاوُنِ، وَهُوَ مُسَاعَدَةُ الْغَنِيِّ لِلْفَقِيرِ، وَإِعَانَةُ الْقَوِيِّ لِلضَّعِيفِ، وَبَذْلُ الْمَالِ، وَالْعِنَايَةُ فِي حِفْظِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ؛ بِهَذَا ظَهَرَ الْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ وَكَانَتْ لَهُمُ السِّيَادَةُ، وَبِتَرْكِ هَذَا انْحَلَّتِ الأُمَمُ الْكَبِيرَةُ، وَفَقَدَتِ الْمُلْكَ والسعادة)[1].

ويبين أثر المال في الدفع عن الحق والذود عن حياضه، وحاجة الأمة إلى تعاون الأفراد في ذلك حتى تقوى بهم وتعز بدفعهم ومساندتهم بأن: (الْقِتَالُ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ أَوْ لِحِمَايَةِ الْحَقِيقَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى بَذْلِ الْمَالِ لِتَجْهِيزِ الْمُقَاتِلَةِ وَلِغَيْرِ ذَلِكَ، لا فَصْلَ فِي الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا بَيْنَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ، فَإِذَا كَانَتْ مُقَاتَلَةُ الْقَبَائِلِ الْبَدَوِيَّةِ لا تُكَلِّفُ

١- المنار: ٢/٢٦٩.

رَئِيسَهَا أَنْ يَتَوَلَّى تَجْهِيزَهَا بَلْ يُجَهِّزُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مُطَالَبٌ بِبَذْلِ الْمَالِ لِتَجْهِيزِ نَفْسِهِ، وَإِعَانَةِ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ فُقَرَاءِ قَوْمِهِ، وَأَمَّا دُوَلُ الْحَضَارَةِ فَهِيَ تَحْتَاجُ فِي الاسْتِعْدَادِ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْمُهَاجَمَةِ مَا لا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْبَادِيَةِ، وَقَدْ كَثُرَتْ نَفَقَاتُ الدُّوَلِ الْحَرْبِيَّةِ الْيَوْمَ بِارْتِقَاءِ الْفُنُونِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَتَوَقُّفِ الْحَرْبِ عَلَى عُلُومٍ وَفُنُونٍ وَصِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مَنْ قَصَّرَ فِيهَا كَانَ عُرْضَةً لِسُقُوطِ دَوْلَتِهِ؛ لِهَذَا قَرَنَ اللهُ تَعَالَى الأَمْرَ بِالْقِتَالِ، بِالْحَثِّ عَلَى بَذْلِ الْمَالِ، فَالْمُرَادُ بِالْبَذْلِ هُنَا مَا يُعِينُ عَلَى الْقِتَالِ، وَمَا هُوَ بِمَعْنَاهُ مِنْ كُلِّ مَا يُعْلِي شَأْنَ الدِّينِ، وَيَصُونُ الأُمَّةَ وَيَمْنَعُهَا مِنْ عُدْوَانِ الْعَادِينَ، وَيَرْفَعُ مَكَانَتَهَا فِي الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ ذُكِرَ حُكْمُ هَذَا الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِعِبَارَةٍ تَسْتَفِزُّ النُّفُوسَ، وَأُسْلُوبٍ يَحْفِزُ الْهِمَمَ، وَيَبْسُطُ الأَكُفَّ بِالْكَرَمِ، فَقَالَ: **(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا)** فَهَذِهِ الْعِبَارَةُ أَبْلَغُ مِنَ الأَمْرِ الْمُجَرَّدِ، وَمِنَ الأَمْرِ الْمَقْرُونِ بِبَيَانِ الْحِكْمَةِ، وَالتَّنْبِيهِ إِلَى الْفَائِدَةِ، وَالْوَجْهُ فِي اخْتِيَارِ هَذَا الأُسْلُوبِ هُنَا عَلَى مَا قَرَّرَهُ الأُسْتَاذُ الإِمَامُ أَنَّ الدَّاعِيَةَ إِلَى الْبَذْلِ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ضَعِيفَةٌ فِي نُفُوسِ الأَكْثَرِينَ، وَالرَّغْبَةُ فِيهِ قَلِيلَةٌ؛ إِذْ لَيْسَ فِيهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالأَرْيَحِيَّةِ مَا فِي الْبَذْلِ لِلأَفْرَادِ، فَاحْتِيجَ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي التأثير.

يَدْفَعُ الْغَنِيُّ إِلَى بَذْلِ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ مَالِهِ لأَفْرَادٍ مِمَّنْ يَعِيشُ مَعَهُمْ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ: مِنْهَا إِزَالَةُ أَلَمِ النَّفْسِ بِرُؤْيَةِ الْمَعُوزِينَ وَالْبَائِسِينَ، وَمِنْهَا اتِّقَاءُ حَسَدِ الْفُقَرَاءِ وَاكْتِفَاءُ شَرِّ شِرَارِهِمْ، وَالأَمْنُ مِنِ اعْتِدَائِهِمْ، وَمِنْهَا التَّلَذُّذُ بِرُؤْيَةِ يَدِهِ الْعُلْيَا، وَبِمَا يَتَوَقَّعُهُ مِنِ ارْتِفَاعِ الْمَكَانَةِ فِي النُّفُوسِ، وَتَعْظِيمِ مَنْ يَبْذُلُ لَهُمْ وَشُكْرِهِمْ وَحُبِّهِمْ؛ فَإِنَّ السَّخِيَّ مُحَبَّبٌ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ مَنْ يَنْتَفِعُ مِنْهُمْ بِسَخَائِهِ وَمَنْ لا يَنْتَفِعُ، وَإِذَا كَانَ الْبَذْلُ إِلَى ذَوِي الْقُرْبَى أَوِ الْجِيرَانِ فَحَظُّ النَّفْسِ فِيهِ أَجْلَى، وَشِفَاءُ أَلَمِ النَّفْسِ بِهِ أَقْوَى، فَإِنَّ أَلَمَ جَارِكَ وَقَرِيبِكَ أَلَمٌ لَكَ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ نَاعِمًا بَيْنَ أَهْلِ الْبُؤْسِ وَالضَّرَّاءِ، سَعِيدًا بَيْنَ الأَشْقِيَاءِ، فَكُلُّ هَذِهِ حُظُوظٌ لِلنَّفْسِ فِي الْبَذْلِ لِلأَفْرَادِ تُسَهِّلُ عَلَيْهَا امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ فِيهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤَكَّدًا. وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَحُبِّ السُّمْعَةِ مَا يُنَافِي كَوْنَهَا قُرْبَةً وَتَعَبُّدًا.

وَأَمَّا الْبَذْلُ الَّذِي يُرَادُ هُنَا – وَهُوَ الْبَذْلُ لِلدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَإِعْلاءِ كَلِمَتِهِ وَحِفْظِ حُقُوقِ أَهْلِهِ – فَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تِلْكَ الْحُظُوظِ الَّتِي تُسَهِّلُ عَلَى النَّفْسِ مُفَارَقَةَ مَحْبُوبِهَا (الْمَالِ) إِلاَّ إِذَا كَانَ تَبَرُّعًا جَهْرِيًّا يَتَوَلَّى جَمْعَهُ بَعْضُ الْحُكَّامِ وَالأُمَرَاءِ أَوْ يُجْمَعُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ وَالسَّلاطِينِ؛ وَلِذَلِكَ يَقِلُّ فِي النَّاسِ مَنْ يَبْذُلُ الْمَالَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، فَلِهَذَا كَانَ الْمَقَامُ يَقْتَضِي مَزِيدَ التَّأْكِيدِ

وَالْمُبَالَغَةِ فِي التَّرْغِيبِ، وَلَيْسَ فِي الْكَلامِ مَا يُدْرِكُ شَأْوَ هَذِهِ الآيَةِ فِي تَأْثِيرِهَا، وَلا سِيَّمَا مَوْقِعُهَا هَذَا بَعْدَ بَيَانِ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي مَوْتِ الأُمَمِ وَحَيَاتِهَا.

حَسْبُكَ أَنَّهُ تَعَالَى جَعَلَ هَذَا الْبَذْلَ بِمَثَابَةِ الإِقْرَاضِ لَهُ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنِ الْعَالَمِينَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِنَّمَا يَقْتَرِضُ الْمُحْتَاجُ، وَأَنَّهُ عَبَّرَ عَنْ طَلَبِهِ بِهَذَا الضَّرْبِ مِنَ الاسْتِفْهَامِ، الْمُسْتَعْمَلِ لِلإِكْبَارِ وَالاسْتِعْظَامِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُقَالُ مَنْ ذَا الَّذِي يَفْعَلُ كَذَا؟ فِي الأَمْرِ الَّذِي يَنْدُرُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يُقَالُ مَنْ ذَا يَتَطَاوَلُ إِلَى الْمَلِكِ فُلانٍ؟ أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْمَلُ هَذَا الْعَمَلَ وَلَهُ كَذَا؟ إِذَا كَانَ عَظِيمًا أَوْ شَاقًّا يَقِلُّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: (**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**) (البقرة: ٢٥٥) وَقَالَ: (**قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ**) (الأحزاب: ١٧)؟ الآيَةَ، وَلا يُقَالُ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْرَبُ هَذِهِ الْكَأْسَ الْمَثْلُوجَةَ؟ – وَهَجِيرُ الصَّيْفِ مُتَّقِدٌ، وَالسَّمُومُ تَلْفَحُ الْوُجُوهَ – وَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِتَسْمِيَتِهِ إِقْرَاضًا وَبِالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِهَذَا الاسْتِفْهَامِ حَتَّى قَالَ: (**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**) ذَلِكَ أَنَّ الإِقْرَاضَ هُوَ أَنْ تُعْطِيَ إِنْسَانًا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ عَلَى أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ مِثْلَهُ، فَالتَّعْبِيرُ بِالإِقْرَاضِ يَقْتَضِي أَنَّ الْقَرْضَ لا يَضِيعُ، وَلَيْسَ هَذَا بِكَافٍ فِي التَّرْغِيبِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْحَالُ هُنَا، فَصَرَّحَ بِأَنَّهُ لا يَرُدُّ مِثْلَهُ، بَلْ أَضْعَافَ أَضْعَافِهِ

مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ، وَقَدْ قَالَ فِي مَقَامٍ آخَرَ: (**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**) (سبأ: ٣٩) وَهُوَ كَافٍ هُنَاكَ لِمَا عَلِمْتَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ، وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحَالَيْنِ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ النَّاسَ عَلَى هَذَا التَّأْكِيدِ فِي التَّرْغِيبِ قَلَّمَا يَجُودُونَ بِأَمْوَالِهِمْ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ (**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**) (سبأ: ١٣).

.... - وَإِذَا كَانَ فَقْرُ الْفَقِيرِ إِنَّمَا هُوَ بِالْجَرْيِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ فَإِزَالَةُ سَبَبِ فَقْرِهِ أَوْ مُسَاعَدَتِهِ عَلَيْهِ أَوْ فِيهِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِهِ تَعَالَى أَيْضًا كَمَا أَنَّ غِنَى الْغَنِيِّ كَذَلِكَ، فَالإِنْفَاقُ لإِحْيَاءِ سُنَّةِ اللهِ وَمُسَاعَدَةِ مَنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُمْ عِيَالُهُ - إِذْ لا غِنَى لَهُمْ بِكَسْبِهِمْ وَلا حَوْلَ لَهُمْ وَلا قُوَّةَ - يَنـزِلُ مَنـزِلَةَ الإِقْرَاضِ لَهُ تَعَالَى، فَالْفُقَرَاءُ عِيَالٌ، وَاللهُ يَعُولُهُمْ بِأَيْدِي الأَغْنِيَاءِ، وَيَعُولُ الأَغْنِيَاءَ بِتَوْفِيقِهِمْ لأَسْبَابِ الْغِنَى.

أَقُولُ: هَكَذَا وَجَّهَ الْعِبَارَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ قَالَ: إِنَّ الْحَثَّ عَلَى الإِنْفَاقِ فِي هَذِهِ الآيَةِ يُرَادُ بِهِ الإِنْفَاقُ فِي الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، لا مُوَاسَاةُ الْفَقِيرِ، فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ صِحَّةَ التَّعْبِيرِ فِي نَفْسِهِ حَيْثُمَا وَرَدَ وَإِنِ اسْتُعْمِلَ فِي مَقَامٍ آخَرَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ: (**إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ**) (التغابن: ١٧) وَدَخَلَ فِيمَا ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَهُوَ يَنْطَبِقُ عَلَى سَائِرِهَا؛

فَإِنَّ الْقِتَالَ لِحِمَايَةِ الدِّينِ وَتَأْمِينِ دَعْوَتِهِ وَلِلدِّفَاعِ عَنِ الأَنْفُسِ وَالْبِلادِ هُوَ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ، فَالإِنْفَاقُ فِيهِ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى إِقْرَاضًا لِلَّهِ تَعَالَى بِاعْتِبَارِ إِقَامَةِ سُنَّتِهِ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ الَّذِي يُرْضِيهِ جَلَّ شَأْنُهُ.....

وَأَقُولُ: لَوْ سِرْنَا فِي الأَرْضِ وَسَبَرْنَا أَحْوَالَ الأُمَمِ الْحَاضِرَةِ وَعَرَفْنَا تَارِيخَ الأُمَمِ الْغَابِرَةِ لَرَأَيْنَا كَيْفَ مَاتَتِ الأُمَمُ الَّتِي قَصَّرَتْ فِي هَذِهِ الْفَرِيضَةِ أَوِ اسْتُعْبِدَتْ، وَكَيْفَ عَزَّتِ الأُمَمُ الَّتِي شَمَّرَتْ فِيهَا وَسَعِدَتْ، وَهَذِهِ الْمُضَاعَفَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ تَكُونُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَقَامَتْ هَذِهِ السُّنَّةَ الإِلَهِيَّةَ فِي حِفْظِ بَيْضَتِهَا، وَإِعْزَازِ سُلْطَانِهَا، سَوَاءٌ أَكَانَ الْمُنْفِقُونَ فِيهَا يَبْتَغُونَ الأَجْرَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى أَمْ لا، وَإِنَّهَا لَمُضَاعَفَةٌ كَثِيرَةٌ لا يُمْكِنُ تَحْدِيدُهَا، فَمَا أَجْهَلَ الأُمَمَ الْغَافِلَةَ عَنْهَا وَعَنْ حَالِ أَهْلِهَا إِذْ يَرَوْنَ أَهْلَهَا قَدْ وَرِثُوا الأَرْضَ وَسَادُوا الشُّعُوبَ فَيَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا مِثْلَهُمْ، وَلا يَدْرُونَ كَيْفَ يَكُونُ كَذَلِكَ![1]

فانظر – رحمك الله – إلى هذا الوعي السنني لدي صاحب المنار وتنـــزيل الآيات المباركات عليه، وقد قل من المفسرين- حقا- من يقف عند هذه المعاني، ويربط الآيات بهذا السياق هذا الربط، فالشيخ رحمه الله يؤكد:

١- المنار:٢/ ٣٦٦/٣٧١ بتصرف واختيار.

١- أن القتال للدفع عن الحق أو حماية الحقيقة يتوقف على بذل المال، وبدونه لا تنهض الأمم ولا تقف أمام أعدائها، والواقع المعيش يؤكد هذا وينصره، كما هم مشاهد.

٢- أنه كلما تقدمت الأمم حضارة كلما كان داعيتها وحاجتها إلى المال أكثر، لما يتوقف على ذلك من استعداد عدوها، وتنوع آلات الحرب لديه وقد أمرنا بأن نعد لعدونا ما استطعنا من قوة.

٣- وقوفه رحمه الله عند العبارة التي أبان بها القرآن عن الدعوة إلى الإنفاق، فهي عبارة تستفز النفوس وتحفز الهمم وتبسط الأكف بالكرم،وفي التركيب القرآني هذا ما فيه من إصابة الغرض بأبين بيان وأقصر طريق.

٤- تأكيده – رحمه الله- أن البذل المقصود هنا للمصالح العامة للجهاد في سبيل الله ونحوه، واعتماده على السياق في هذا الاستنباط، وهي براعة لافتة للنظر آخذة للأسباب.

٥- تأكيده – رحمه الله – أن داعية البذل في المصالح العامة ضعيفة، وأن ما يدفع للأفراد الذين يعيش بينهم الغني الباذل أطوع لدى النفس، وأقرب للفؤاد، أما البذل في المصالح العامة فلا تجد في نفس الناس مثل هذا؛ ولذلك جاء التعبير القرآني بهذا التركيب البديع، اللافت للنظر المؤثر في القلب، المستخرج لمكنون الخزائن.

٦- بيان أن هذا التركيب البلاغي في الدعوة إلى الإنفاق لا يؤدي مؤداه غيره من صور التركيب اللفظي.

٧- نهي أولي الأحلام عن الفساد:

إن من أسباب بقاء الأمم واستقرارها واستمرارها وحفظها من الانهيار والسقوط والهلاك، أن يكون فيها بقية ينهون عن السوء، وما حديث السفينة منا ببعيد، فقد أخرج البخاري بسنده من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[1].

فقد شبه النبي ﷺ المجتمع البشري بالسفينة، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو، أي سنة الله تعالى في الخلق في هذا الظرف، فإن المجتمع الإنساني يحكمه قاون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولقد تناول صاحب المنار هذا السبب من أسباب البقاء، وعنون

١- صحيح البخاري، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ٨٨٢/٢. برقم الحديث ٢٣٦١.

له عنوانا لافتاً بقوله:

(نَهْيُ أُولِي الأَحْلامِ عَنِ الْفَسَادِ يَحْفَظُ الأُمَّةَ مِنَ الْهَلاك)

ووقف لذلك عند تناول قوله تعالى: (**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ**)[1]، بقوله: (جَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ بَعْدَ بَيَانِ إِهْلاكِ الأُمَمِ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ فِي الأَرْضِ؛ لِلإِعْلامِ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمْ جَمَاعَاتٌ وَأَحْزَابٌ أُولُوا بَقِيَّةٍ مِنَ الأَحْلامِ وَالْفَضَائِلِ وَالْقُوَّةِ فِي الْحَقِّ يَنْهَوْنَهُمْ عَنْ ذَلِكَ لَمَا فَشَا فِيهِمْ، وَأَفْسَدَهُمْ وَإِذَنْ لَمَا هَلَكُوا، فَإِنَّ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ فِي الأَرْضِ هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الأُمَمَ مِنَ الْهَلاكِ مَا دَامُوا يُطَاعُونَ فِيهَا بِحَسْبِ سُنَّةِ اللهِ، كَمَا أَنَّ الأَطِبَّاءَ هُمُ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الأُمَمَ مِنْ فُشُوِّ الأَمْرَاضِ وَالأَوْبِئَةِ فِيهَا، مَا دَامَتِ الْجَمَاهِيرُ تُطِيعُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْوِقَايَةِ قَبْلَ حُدُوثِ الْمَرَضِ.... إِنَّ الْمُرَادَ بِالصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَحْفَظُ اللهُ بِهِمُ الأُمَمَ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) (الأنبياء: ١٠٥) وَهُمُ الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: (**إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) (الأعراف: ١٢٨)، وَقَالَ: (**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) (النور: ٥٥) الآيَةَ.... وَإِنَّ اللهَ لا

١- هود: ١١٦.

يَحْفَظُ الأُمَمَ بِذَوَاتِهِمْ وَبَرَكَةِ أَجْسَادِهِمْ، وَلا بِعِبَادَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الْقَاصِرِ نَفْعُهَا عَلَيْهِمْ، بَلْ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَطَاعَةِ الأُمَّةِ لَهُمْ.

نَعَمْ إِنَّ اللهَ لا يُهْلِكُ الأُمَّةَ كُلَّهَا بِعَذَابِ الاسْتِئْصَالِ مَادَامَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَلَكِنَّهُ يُعَذِّبُهَا بِذُنُوبِهَا فِيمَا عَدَا ذَلِكَ مِمَّا فَصَّلْنَاهُ فِي عِلاوَةِ قِصَّةِ الطُّوفَانِ الرَّابِعَةِ)[1].

وبين رحمه الله أن الله تعالى لا يحفظ الأمم بذوات أجسادها بل بالصالحين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، وبين أن المراد بالصالحين هنا ليسوا أصحاب البدع والخرافات بل الصالحون الذين يرثون الأرض من بعد أهلها والذين يمكن الله تعالى لهم في الأرض.

٨- معرفة التاريخ:

التاريخ ذاكرة الأمم، به تعرف ماضيها وتستشرف- على أساسه مستقبلها، وقوم ينسون تاريخهم مثل عيي لا يعرف نسبه، ولا يرتبط بجذوره

كما يقول شوقي:

مثل القوم نسوا تاريخهم .˙. كلقيط عيّ في القوم انتسابا[2]

١- المنار: ٢٠١/١٢، ٢٠٢.

٢- الشوقيات: لأمير الشعراء أحمد شوقي ج١، ط دار الأرقم، بيروت لبنان، حققه وقدم له د. عمر فاروق الطباع، ص٣٦٠، من قصيدة تحلية كتاب، ومطلعها:

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وافيا إلا الكتابا.

والوقوف على التاريخ وما حل بالأمم السابقة في ماضيها العتيق سبب من أسباب العصمة من الردى، وحام من الوقوع في مهاوي الهلاك.

يدرك صاحب المنار هذا وصلته بعصمة الأمة من الهلاك، وحفظها من السقوط بوقوفها على تجارب السابقين، وإفادتها من سنة الله في الماضين، فيرى:

(أنَّ هَذه الأُمَّةَ أُمَّةٌ وَاحدَةٌ وَإِن اخْتَلَفَتْ ديَارُهَا وَتَعَدَّدَتْ أَجْنَاسُهَا، وَلا يُمْكِنُ أَنْ تَعْرِفَ حَقيقَتَهَا إلاَّ بَعْدَ مَعْرِفَة تَاريخهَا الْمَاضِي، فَلا بُدَّ مِنْ تَتَبُّعِ السَّوَاقِي وَالْجَدَاوِلِ إِلَى الْيَنْبُوعِ الأَوَّلِ الَّذي هُوَ الْأَصل. كَانَ سَلَفُنَا – رَضِيَ اللهُ – تَعَالَى – عَنْهُمْ – يَضْبطُونَ أَحْوَالَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ والدنيا بكُلِّ اعْتنَاءٍ وَدقَّة، حَتَّى كَانُوا يَرْوُونَ الْبَيْتَ مِنَ الشِّعْرِ أَوِ النُّكْتَةَ بَيْنَ الْعَاشقِ وَمَعْشُوقَته بالأَسَانيد الْمُتَّصلَة، وَلَيْسَتْ هَذه الْمُبَالَغَةُ ممَّا يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ؛ فَإِنَّ الأُمَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ أُمَّةً بدينهَا وَلُغَتهَا وَأَخْلاقهَا وَعَادَاتهَا، فَإِذَا لَمْ يَحْفَظْ خَلَفُهَا عَنْ سَلَفهَا هَذه الْمُقَوِّمَات بحفْظ تَاريخهَا، تَكُونُ عُرْضَةً للتَّغَيُّر بتَأْثير حَوَادث الزَّمَان، وَتَقَلُّبَات شُئُون الاجْتمَاعِ مَعَ جَهْلِ الْمُتَأَخِّرِ بمَا كَانَ عَلَيْه الْمُتَقَدِّمُ، وَبكَيْفيَّة حُدُوث التَّغْيير الضَّارِّ للْجَهْلِ بالتَّاريخ، بهَذَا تَفْعَلُ فَوَاعِلُ الْكَوْنِ بالأُمَّةِ الْجَاهلَة أَفَاعيلَهَا حَتَّى تَقْلبَ كيَانَهَا، وَتُقَوِّضَ

بُنْيَانَهَا، وَتَقْطَعَ عُرَى الرُّبُطِ الْعَامَّةِ بَيْنَ أَفْرَادِهَا، فَلا يَكُونُ لَهُمْ عَمَلٌ إلاَّ لِلْمَصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّةِ، وَهِيَ لاَ حِفَاظَ لَهَا فِي مَجْمُوعِ الأُمَّةِ إلاَّ بِالْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ، فَإِذَا أَهْمَلَتْ تَكُونُ الأُمَّةُ مِنَ الْهَالِكِينَ.

عُنِيَتْ أُمَّتُنَا بِالتَّارِيخِ عِنَايَةً لَمْ تَسْبِقْهَا بِهِ أُمَّةٌ، فَلَمْ تَكْتَفِ بِضَبْطِ الْوَقَائِعِ وَتُلْقِيهَا بِالرِّوَايَةِ كَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، بَلْ تَفَنَّنَتْ فِيهَا فَصَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الأَشْخَاصِ كَمَا صَنَّفَتْ فِي تَارِيخِ الْبِلادِ وَالشُّعُوبِ، ثُمَّ نَوَّعَتْ تَارِيخَ الأَشْخَاصِ فَجَعَلَتْ لِكُلِّ طَبَقَةٍ تَارِيخًا، فَنَرَى فِي الْمَكَاتِبِ طَبَقَاتِ الْمُفَسِّرِينَ، وَطَبَقَاتِ الْمُحَدِّثِينَ، وَطَبَقَاتِ النَّحْوِيِّينَ، وَطَبَقَاتِ الأَطِبَّاءِ، وَطَبَقَاتِ الشُّعَرَاءِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ اهْتَدَى بَعْضُهُمْ إِلَى اسْتِنْبَاطِ قَوَاعِدِ الْعُمْرَانِ وَأُصُولِ الاجْتِمَاعِ مِنَ التَّارِيخِ فَصَنَّفَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي ذَلِكَ مُقَدِّمَةَ تَارِيخِهِ، وَلَوْ لَمْ تَنْقَطِعْ بِنَا سِلْسِلَةُ الْعِلْمِ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ لَكُنَّا أَتْمَمْنَا مَا بَدَأَ بِهِ سَلَفُنَا، وَلَكِنَّنَا تَرَكْنَاهُ وَسَبَقَنَا غَيْرُنَا إِلَى إِتْمَامِهِ وَاسْتِثْمَارِهِ؛ فَالتَّارِيخُ هُوَ الْمُرْشِدُ الأَكْبَرُ لِلأُمَمِ الْعَزِيزَةِ الْيَوْمَ إِلَى مَا هِيَ فِيهِ مِنْ سَعَةِ الْعُمْرَانِ وَعِزَّةِ السُّلْطَانِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ هُوَ الْمُرْشِدُ الأَوَّلُ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى الْعِنَايَةِ بِالتَّارِيخِ وَمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ فِي الأُمَمِ مِنْهُ، وَكَانَ الاعْتِقَادُ بِوُجُوبِ حِفْظِ السُّنَّةِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ هُوَ الْمُرْشِدُ الثَّانِي إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا صَارَ الدِّينُ يُؤْخَذُ مِنْ غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أُهْمِلَ التَّارِيخُ، بَلْ صَارَ مَمْقُوتًا

عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُشْتَغِلِينَ بِعِلْمِ الدِّينِ، فَإِنْ وُجِدَ مَنْ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، فَإِنَّمَا يَكُونُ مُتَّبِعًا فِي ذَلِكَ سُنَّةَ قَوْمٍ آخَرِينَ)[1].

إلى هذا الحد يعنى صاحب المنار بالتاريخ، وأثره في بقاء الأمم، وإن غفلت الأمم كلها عنه، فلا ينبغي للأمة التي عنيت بضبط الأحداث، وتوثيق الشارد والوارد من تاريخها أن تهمله، فنحن أمة السند، وعلم الرجال لدينا من أسبق العلوم، وتاريخنا يدفعنا للفخار به، والإفادة منها فتاريخنا مليء بما يعيننا على كل ما يعرض لنا نستلهم منه العبر، وندفع به إلى الأمام، فهو معلمنا كما يقول أحد المؤرخين.

وكأن صاحب المنار يستشرف ما يحدث لأمتنا اليوم من بعد عن سنن الله في الاجتماع والعمران، وإهمال لا يليق بعلم التاريخ وأثره، وإن فعلنا فعلى مناهج الغرب ونظرياته.

٩- اتقاء أسباب الفناء:

ومن أسباب بقاء الأمم التي تناولها صاحب المنار: اتقاؤهم أسباب الفناء التي مرت بالأمم السابقة والتي وقعوا فيها معاندين ومكابرين فعند تناوله تفسير سورة الأعراف وحديثه عن سنن الله في الاجتماع والعمران البشري يذكر أنه من سنن الله تعالى: (سُنَّةُ اللهِ فِي إِرْثِ

١- المنار: ٢٥٨/١، ٢٥٩.

الأَرْضِ وَاسْتِخْلافِ الأُمَمِ فِيهَا، وَالاسْتِيلاءِ وَالسِّيَادَةِ عَلَى الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ. فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى مَعَ قَوْمِهِ أَنَّ وَطْأَةَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ اشْتَدَّتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَصَرَّحَ بِوُجُوبِ الاسْتِمْرَارِ عَلَى تَقْتِيلِ أَبْنَائِهِمْ، وَاسْتِحْيَاءِ نِسَائِهِمْ؛ لأَجْلِ أَنْ تَنْقَرِضَ الأُمَّةُ بَعْدَ اسْتِذْلالِ مَنْ يَبْقَى مِنَ النِّسَاءِ إِلَى أَنْ يَنْقَرِضَ الرِّجَالُ، وَمَا ازْدَادُوا إِلاَّ ذُلاًّ وَخُنُوعًا - وَهُمْ مِئَاتُ الأُلُوفِ - كَمَا هُوَ شَأْنُ الشُّعُوبِ الْجَاهِلَةِ الْمُسْتَضْعَفَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ مُوسَى أَنْ يَمْتَلِخَ ذَلِكَ الْيَأْسَ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِقُوَّةِ الإِيمَانِ بِمَا حَكَاهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: (**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (١٢٨)) أَيْ بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الأَرْضَ لَيْسَتْ رَهْنَ تَصَرُّفِ الْمُلُوكِ وَالدُّوَلِ بِقُدْرَتِهِمُ الذَّاتِيَّةِ فَتَدُومُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ، وَلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سُنَّةٌ فِي سَلْبِهَا مِنْ قَوْمٍ، وَجَعْلِهَا إِرْثًا لِقَوْمٍ آخَرِينَ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَمَدَارُ هَذِهِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِي التَّنَازُعِ بَيْنَ الأُمَمِ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي تَعِيشُ فِيهَا أَوْ تَسْتَعْمِرُهَا لِلْمُتَّقِينَ، أَيِ الَّذِينَ يَتَّقُونَ أَسْبَابَ الضَّعْفِ وَالْخِذْلانِ وَالْهَلاكِ، كَالْيَأْسِ مِنْ رُوحِ اللهِ وَالتَّخَاذُلِ وَالتَّنَازُعِ وَالْفَسَادِ فِي الأَرْضِ وَالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ، وَيَتَلَبَّسُونَ بِضِدِّهَا، وَبِسَائِرِ مَا تَقْوَى بِهِ الأُمَمُ مِنَ الأَخْلاقِ وَالأَعْمَالِ، وَأَعْلاهَا الاسْتِعَانَةُ بِاللهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكَارِهِ مَهْمَا عَظُمَتْ، وَهَذَانِ الأَمْرَانِ هُمَا أَعْظَمُ مَا تَتَفَاضَلُ بِهِ

الْأُمَمُ مِنَ الْقُوَى الْمَعْنَوِيَّةِ بِاتِّفَاقِ الْمَلاحِدَةِ وَالْمِلِّيِّينَ مِنْ عُلَمَاءِ الاجْتِمَاعِ وَقُوَّادِ الْحُرُوبِ)[1].

* * *

١- المنار: ٩/٤٨١

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة في صحبة المنار وصاحبه، حول سنة الله تعالى في إهلاك الأمم، وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال يمكننا أن نقف على الآتي:

١- أن تفسير المنار وصاحبه من أكثر التفاسير قديمها وحديثها وقوفا على سنن الله – تعالى- في العمران والاجتماع البشري، ومن أكثر التفاسير دعوة للأمة أن تفيد من علم السنن الذي أرشدهم إليه القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهر، ومن أكثر التفاسير تناولا للسنن وتعاملا معها.

٢- أن تفسير المنار وصاحبه لم يأخذ حقه من الدراسات العلمية والتأصيلية، بالقدر الذي يتناسب مع ما قدمه للأمة من إفادة، وما بذله في سبيل إرشادها من جهد، وهذه دعوة ملحة للباحثين والدارسين والمختصين في الدراسات القرآنية أن يلتفتوا إلى المنار ومدرسته وأن ينظروا إليها بالقدر اللائق حتى يفيدوا من كنوزه ويستخرجوا من درره.

٣- أن القرآن الكريم حفل بالحديث عن أباب بقاء الأمم وهلاكها بما لا يدع مجالا للاعتذار عن التقصير في تفهم هذه السنة الماضية والقانون المطرد.

٤- أن أسباب البقاء والفناء للأمم واضحة بينة في ثنايا القرآن الكريم

وطواياه،،إننا مطالبون أفرادا وجماعات بتفهمها والوقوف عليها والعمل بمتطلباتها.

٥- أن الأمة لم تتنبه لهذه السنة الماضية و لم تولها حقها، وهذا سبب من أسباب التردي الذي منينا به في الأعصار المؤخرة، فغيرنا ممن لا يربطه بالسماء وحي صحيح ولا كتاب صريح يرصد ما يحل بالأمم ويفيد منه، ويتقي لورود في موارد الهلاك، كأنه مطالب بما طولبنا به، بل أمرنا به، فقد وقفوا على عبر التاريخ بصورة مجمعية مؤسسية و لم تعد الدراسات الفردية فقط هي المعول لديهم خاصة في مثل هذه القضايا المصيرية الكبرى، فأين المسلمون؟؟؟؟

٦- أن الغرب أفاد من السنن عمليا وعاش تطبيقها على الرغم من كتابا سماويا لم يهده لها، وإنما الحاجة التي عاشها وعايشها دفعته للإفادة منها، والوقوف عليها، ومن أحيا أرضا مواتا فهي له، لقد وعى الغرب السنن وسخرها عمليا في الوقت الذي غاب فيه المسلمون أو كادوا فهل من عودة؟؟؟؟؟.

٧- أن الطريق لا زال مفتوحا والسبيل ما زالت ميسرة للإفادة من القرآن وسننه وقوانينه الحاكمة فرادى وجماعات وشعوبا وحكومات، لينهل منه الناس ويفيدوا من عطائه.

* * *

أهم المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً:

١- أساس البلاغة، للإمام الزمخشري، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثالثة ١٩٨٥م.

٢- أسباب هلاك الأمم، محمد سعيد باسيلا، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، ط: سلسلة الحكمة، ط أولى، ١٤٢٠هـ.

٣- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، ط: دار المعرفة، بيروت لبنان، ط أولى ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادي، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط. الثالثة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٥- التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، ط. أولى، ١٤٠٥هـ، ت: إبراهيم الإبياري.

٦- تفسير القرآن الحكيم المسمى بتفسير المنار، السيد رشيد رضا، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٧٣م.

٧- التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرءوف المناوي،

ط: دار الفكر، بيروت، دمشق، ط أولى، ت: محمد رضوان الداية.

٨- الجامع الصحيح المختصر، للإمام محمد بن إسماعيل بن عبد الله البخاري الجعفي، ط دار ابن كثير، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧ مـ، ت: د. مصطفى ديب البغا.

٩- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف بصحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري، الجعفي، لمحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٠- سنن ابن ماجه، ط دار الفكر، بيروت، لمحمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، مذيلة بأحكام الألباني عليها.

١١- سنن أبي داوود، ط دار الفكر لسليمان بن الأشعث أبي داوود السجستاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، تعليق: كمال يوسف الحوت، مذيلة بأحكام الألباني عليها.

١٢- سنن البيهقي الكبرى المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي

١٣- الشوقيات ١٥٢/١، ط: شركة دار الأرقم، بيروت لبنان،

بدون تاريخ، بتقديم وتحقيق: د. عمر فاروق الطباع.
١٤- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٥- صفة الصفوة جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) ت: أحمد بن علي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ط: مكتبة دار الباز - مكة المكرمة، ١٤١٤هـ — ١٩٩٤م.
١٦- عنوان الدليل من مرسوم خط التنـزيل، أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي (المتوفى: ٧٢١هـ)، حققته وقدمت له: هند شلبي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت — لبنان، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م.
١٧- الفتاوى الكبرى لابن تيمية،، تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى:٧٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
١٨- فقه السنن الربانية وموقف المسلمين منها بين الإعمال والإهمال قراءة في فكر الإمام محمد عبده، بحث منشور في حولية كلية

الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر عدد ٢٤.
١٩- في ظلال القرآن، للشيخ سيد قطب رحمه الله، ط: دار الشروق، ط الرابعة، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.
٢٠- القاموس المحيط، المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢١- لسان العرب، ط دار صادر بيروت، ط أولى، لمحمد بن منظور الأفريقي المصري.
٢٢- مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت — صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
٢٣- المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد ابن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية —

بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ — ١٩٩٠م.
٢٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد ابن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية — بيروت.
٢٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط الثالثة،ط دار الحديث١٤١١هـ /١٩٩١م، لمحمد فؤاد عبد الباقي.
٢٦- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ط: الأنجلو، بدون تاريخ.
٢٧- مفهوم السنن الربانية من الإدراك إلى التسخير، بحث منشور بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية ج. الأزهر - القاهرة العدد٢٣ - د. رمضان خميس الغريب.
٢٨- مقدمة ديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، ط: دار الفكر، ط أولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
٢٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير
٣٠- الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ: ٣٤،٣٣، د محمد عمارة، ط: دار الرشاد ط الثانية، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

* * *

فهرس الموضــوعات

* * *